فريق
متميزون
E-BOOK

ديمتري جريجوروفيتش

أنطون البائس

رواية

ترجمة: يوسف نبيل

مختارات من الأدب الروسي

آفاق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أنطون البائس

رواية مترجمة..

ديمتري جريجوروفيتش

ترجمة: يوسف نبيل

مقدمة المترجم

يمكننا أن نعتبر هذه الرواية القصيرة أحد أهم الأعمال التي قدمها الأدب الروسي عن حياة الفلاحين في عصر القنانة (العبودية). بالنظر إلى تاريخ صدورها: 1847 يمكننا أن ندرك مدى جرأتها في مهاجمة نظام القنانة، ومدى أهميتها في كشف الظروف غير المحتملة التي عايشها الفلاح الروسي. كعادة بعض الأعمال العظيمة نجد روايتنا تتكئ على حدث أساسي محوري، ورحلة قصيرة يبدأها البطل، ونصحبه فيها لنتعرف على كل الظروف المحيطة بحياته، وحياة الريف بوجه عام في هذه الفترة، حتى تحل النهاية المأساوية.

كانت هذه الرواية القصيرة بداية حقيقية للكتابة عن الريف والفلاح الروسي بعد ذلك على يد عمالقة الأدب الروسي، مثل: تولستوي، وتورجينيف، وليسكوف، وغيرهم.

اشتهر ديمتري جريجوروفيتش في الأساس بهذا العمل وبروايته القصيرة الأخرى: «القرية»، وجلب له هذا العمل شهرة سريعة. كان ديمتري صديقًا لدوستويفسكي في الدراسة والسكن لبعض الوقت، وهو من قدَّم مخطوطة روايته «الفقراء» للنشر. كان له دور مهم أيضًا في تشجيع أنطون تشيخوف، بعد أعوام طويلة، على الإيمان بموهبته الأدبية، وندرك من الرسالة التي أرسلها تشيخوف له كم تأثر بكلماته هذه. في الحقيقة كان ديمتري جريجوروفيتش رجلًا متعدد الاهتمامات، حيث لم ينصب نشاطه كله على الأدب فقط، بل وجَّه الكثير من جهوده إلى مجال الفنون، وعمل في أكاديمية الفنون لفترة، واكتشف ودعَّم بعض الرسامين الروس المهمين، وعلى رأسهم إيليا ريبين.

في العدد الأول من سلسلتنا قدمنا حياة السادة في المدن الصغيرة، والظروف المحيطة بها، أما في هذا العمل، فسوف ننتقل إلى الجزء الآخر: الريف، وهو المورد الحقيقي لكل هذه المصروفات التي عاش عليها السادة في ظل نظام إقطاعي متخلف. استخدم جريجوروفيتش في روايته القصيرة هذه حوارًا شديد الحيوية، وقد كتبه بعامية روسية ريفية، وهي اللغة التي كان الفلاحون يتحدثون بها في هذا الوقت، ليُكسِب روايته مزيدًا من الواقعية. ألحق الكاتب بهذه الحوارات مقاطع سردية رائعة، مكتوبة بلغة صافية، تتضح فيها موهبته في وصف العالم الخارجي الذي يحيط بشخوصه، كما أولى عناية كبيرة للتعبير عن العالم الداخلي لشخوصه. أدت المهارة الأولى إلى إكساب العمل أهمية شديدة، من حيث أنها ترسم للقارئ بوضوح الأماكن التي يعيش فيها الفلاحون، وشكل حياتهم وأدواتهم، والطرق التي يسلكونها، والطبيعة التي يحتكون بها يوميًّا. كما أدت عنايته بعالم الأشخاص الداخلي إلى إلتزام

الصدق في رسم ردود أفعال الشخصيات، واستخدام لغة واقعية غير مزخرفة.

العمل على صغره وبساطة حبكته الشديدة ينم عن مهارة وصنعة أدبية واضحتين. من الأمور اللافتة أيضًا في الرواية الدقة التي يرصد بها الكاتب ردود أفعال الفلاحين وطريقة تفكيرهم، واستجابتهم للمواقف المختلفة التي يتعرضون لها. إنه لا يتهم العقل الريفي ولا يمدحه في الآن ذاته، بل يحاول عرض طريقة تفكيره بدقة شديدة. لا شك أن هذه الدقة يمكن أن توضح لنا أمورًا كثيرة عن العلاقة بين القامعين والمقموعين.

لأسباب غير مقنعة أهملت حركة الترجمة العربية ترجمة أعمال شديدة الأهمية لأسماء تشكل علامات في الأدب الروسي. قدمنا سابقًا عملًا «عمدة» لجيرتسن، واليوم نقدم هذا العمل لكاتب لم يُترجم له شيء إلى العربية تقريبًا - على حد علمي - بالرغم من أن هذا العمل يُعتبر أحد أهم الأعمال التي تُكسب القارئ فهمًا واضحًا لطبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الريف الروسي إبان عصر القنانة. لكني حرصت في اختيار هذه الأعمال أن تكون قيِّمة أيضًا من الناحية الجمالية والأسلوبية.

تشير بعض المصادر إلى اضطرار الكاتب إلى تغيير نهايته الأصلية التي وصف فيها تمرد الفلاحين على ناظر الأرض وحرقهم لمنزله. عانى الأدباء الروس كثيرًا تحت ضغط الرقابة القيصرية، ثم تطور الأمر إبان الحقبة السوفييتية إلى درجة مرعبة. إلا أن النهاية البديلة التي قدمها الكاتب واقعية تمامًا، بل وربما تفوق في واقعيتها نهايته الأولى.

هذا العمل - على صغره - جعلني أواجه تحديات ترجمية شديدة الصعوبة، خاصة في الجمل الحوارية التي استخدمت لغة ريفية عامية، واتكائه على الكثير من التعبيرات الشائعة في هذا الوقت والأمثال الشعبية والألفاظ الأسطورية وما إلى ذلك، وفي كل مرة كنت أواجه اختيارات عديدة، ولا أظن أبدًا أنها اختيارات سهلة. أرجو أن أكون قد وُفِّقت بنسبة مقبولة في تخطي هذه الإشكاليات، وتقديم العمل بصورة جيدة، كما أتقدم بالشكر إلى أساتذتي من المترجمين عن الروسية الذين قدموا لي مساعدات قيمة في هذا العمل: د. تحسين رزاق عزيز - أ. هفال يوسف - د. منذر ملا كاظم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عِش إذا استطعت

ومُت إذا أردت

(حكمة شعبية)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-1-

العم وابن أخيه

كان هناك فلاح يعمل في واحدة من أبعد غابات تروسكينو وأكثرها كثافةً وانعزالًا. أمسك بالفأس بكلتا يديه، وكان يحتطب به سريعًا من الشجيرات التي تكتظ بها الغابة الكثيفة التي لا يمكن المرور عبرها في هذا الموضع. حلت برودة الشتاء، ومن ثَم كان الفلاح يتزود بالحطب اللازم للتدفئة. على بُعد خمسة أقدام منه كانت هناك عربة كبيرة مربوطة بجواد أرقط ممتلئ، ولاح على اليمين عبر فروع الأشجار العارية صبي نصف عارٍ وحده، وقد تسلق وصولًا إلى قمة شجرة الحور العجوز المليئة بأعشاش الغربان. إذا حكمنا بناءً على منظر الوجه المتداعي للفلاح، منحني الظهر، ذي العينين الرماديتين المنطفئتين، يمكننا بثقة أن نُقدِّر عمره بخمسين، أو حتى بالخامسة والخمسين. كان طويل القامة، ذا صدر ناحل، هزيلًا، ذا لحية صفراء شاحبة شعثاء، غطى الشيب عدة مواضع فيها، وكذلك كانت الحال مع شعره. لم يكن بإمكان ثيابه أن تليق على مظهره أكثر من ذلك، فقد كانت كلها ذاوية ومهلهلة إلى أقصى قدر، بداية من قبعته الفروية الوضيعة، وصولًا إلى معطفه القصير المصنوع من جلد الغنم المربوط بحزام من اللحاء. كانت البرودة قارسة، وبالرغم من ذلك كان العرق الغزير يغطي وجه الفلاح، وبدا أنه يحب عمله.

خيَّم هدوء الموت على الغابة من حوله، وقد ترك الخريف القاسي بصمة عميقة على كل شيء؛ فتساقطت أوراق الشجر وغطت الأرض المتجمدة بأكوام مبللة منها. لاحت الأشجار سوداء في كل مكان، وظهرت في بعض المواضع شجيرات حمراء وسطها من الصفصاف والعسلات. على اليمين كانت هناك حفرة مليئة بالمياه العكرة وقد غطت سطحها عفونة زمردية اللون، ولم تعد عناكب الماء تنزلق على سطحها، ولم يعد نقيق الضفادع يصدر منها؛ لم يعد هناك سوى أغصان طحلبية عالقة، مغطاة بطبقة لزجة، وجذوع أشجار بتولا فاسدة قد قُطِعت حديثًا، ممزوجة بنبتات أرقطيون ذاوية وطبقة شعثاء من العشب. لم تكن أصوات الطيور تُسمع من بُعد ولا أصداء أغاني الأُجراء بالأرض ولا ثغاء قطعان الغنم. لم يقطع سكون الغابة الحزينة سوى الطَّرْق المتماثل لفأس فلاحنا.

من وقت للآخر كان عواء الريح يعلو، وكانت الريح تقطع الحقول المتجمدة بنوع من اليأس الضاري وتُدوِّي في الأخاديد العميقة في الطريق الريفي، وتصنع سحبًا كاملة من أوراق الشجر والأغصان، وتحملها وتجدلها في الهواء معًا لتتلقاها الغربان التي جاءت من أجلها، وتكومها الريح في النهاية داخل

دوامة فائرة ضارية، تضرب بها بعنف الجسد النحيل للغابة الكثيفة. توقف الفلاح عن العمل. ترك الفأس وتوجه صوب الصبي الجالس فوق شجرة الحور قائلًا:

- إيه يا فانيوشكا! إلى أين وصلت؟ انظر، إن الريح تهب انزل إلى هنا.

أجاب الصبي:

- لا تخشَ شيئًا يا عمي أنطون لن توقعني الريح.

كانت الطمأنينة تعود إلى العم أنطون في كل مرة بعد هذا الإنذار، ومن ثَم تناول فأسه، وثبَّت قبعته جيدًا فوق رأسه وعاد إلى العمل مجددًا. تكرر الأمر كثيرًا حتى امتلأت العربة أخيرًا بالحطب. وجَّه الفلاح حينها اهتمامًا استثنائيًّا لابن أخيه، وبدا الأمر كما لو أنه انتبه لأول مرة إلى عصيان الولد العنيد له ، ومن ثَم شعر بغضب شديد. صاح وهو يضرب شجرة الحور بعقب الفأس:

- يا لك من مدلل! هل سأظل أكرر أمري لك كثيرًا؟ انزل حالًا، آه أيها المشاغب والمزعج، سوف ترى.

أجاب الصبي آخذًا في التسلق أعلى فأعلى:

- لن أهبط.

- تقول: لن أهبط؟ حسنًا، سأتركك وحدك في الغابة عسى أن تفترسك الذئاب أيها الملعون.

بدا أن التهديد قد ترك أثره على الصبي، فلف ذراعيه حول جذع الشجرة الممتلئ، وقد استعد للهبوط مع أول محاولة من عمه لتنفيذ تهديده. قال وقد أمال رأسه المجعد خلف جذع الشجرة، محدقًا في عمه:

- هل ستضربني؟

- حسنًا، حسنًا، اهبط، ولن أضربك.

- أحقًّا لن تضربني؟

- قلت لك إني لن أضربك. انزل بسرعة.

هبط فانيوشكا مسافة 2 ساجن ([1]) ثم تعلق بالشجرة مجددًا قائلًا:

- وهل ستجلسني على الجواد يا عمي أنطون؟

- حسنًا، حسنًا، ولكن انزل.

- ألن تخدعني؟

- يا له من ولد! عفوك يا اللّه، سأجلسك عليه، ماذا تريد أيضًا؟

هدَّأ الظرف الأخير الصبي تمامًا، ومن ثَم انزلق بين الفروع العليا بسرعة ورشاقة كالسنجاب، وفي غضون لحظة واحدة كان على الأرض بجانب العم.

بعد قليل بدأت العربة المحملة بالأغصان المقطوعة الحمراء والرمادية تغادر الغابة ببطء وهي تصر وتهتز من جانب للآخر، كما لو أنها تحاول أن تُخلِّص نفسها من الحمولة الزائدة عند أول منحدر. جلس فانيوشكا على ظهر الجواد الأرقط، وكان في قمة السعادة. كانت خصلات شعره الشقراء تهتز بفعل الريح، وقد كشفت عن وجه يافع مستدير. مضى أنطون بالقرب منه، يد في جيبه والأخرى على عريش المركبة. بمضيِّ ساعة من الحركة عبر هذه الحقول الترابية والطينية الواقعة خلف الغابة وصل مسافرانا أخيرًا إلى الطريق الريفي، وتناهى إليهما بعد قليل ضجيج المطاحن البعيدة. اقتربت العربة من وادي تروسكينو. اتخذ الوادي من على بُعد، وبشكل غير ملحوظ، أبعادًا واسعة، ضائعًا وسط التضاريس الموجية للمكان، وبدا أنه يتضخم في أعماقه بفعل مزرعة الخيول وأشجار الصفصاف، كما تراكمت أحجار البلاط وأحجار أخرى ضخمة ذات زوايا حادة، وصخب النهرُ وزبد، وبدلًا من الجسر وضعوا سدًّا ضيقًا استند بأحد أطرافه إلى المطحنة المائية القديمة. من الناحية التي اقتربت منها العربة تحررت الطاحونة تمامًا من غصون الصفصاف المحيطة بها من الأجزاء الثلاثة الأخرى، ومن ثَم لاحت للأبصار مخازن الحبوب والأقفاص والأفنية والزحام. كان مستوى الماء منخفضًا بالقنوات، وثلاثة أحجار رحى تعمل بلا كلل، والبناية الرئيسة تهتز من أحد جوانبها؛ الجانب المغطى برغوة بيضاء، كما لو أنها محمومة، والطحين الذي يغطي سقفه ينسكب في الماء ويدور في الهواء. كان الطنين رهيبًا. قبل أن يهبط أنطون من المنحدر الشديد صوب الضفة أوقف جواده وأشار لابن أخيه إلى المطحنة.

- انظر يا فانيا، ألا ترى الطاحونة هناك؟

سأل الصبي:

- أتقصد طاحونة أكسينتي سيميونيتش؟

- يا لك من أحمق! أليس لدينا سواه؟ إنها طاحونة أخرى.

- لا يا عمي أنطون، ولكن أحدهم واقف هناك يرتدي قميصًا أبيض. إنه... إنه يلوِّح بيديه.

- حسنًا، عسى ألا يكون هو، لا بد أنه سيعود من السوق، وسيبدأ في المطالبة بالمال. يا للمصيبة! آه، آه، فانيوخا ([2])، أسرِع إلى هناك وانظر، ولكن احذر أن

تسقط على المنحدر.

بعد اجتياز السد المتقلقل بأمان جر الجواد الأرقط العربة إلى الضفة الأخرى وتنفس الصعداء وأخذ يهز ذيله؛ الأمر الذي يفعله عادةً عندما يشعر بالرضا. عاد الطريق ليصير مستقيمًا ومستويًا. عندما توارى مرأى سقف الطاحونة المغطى بالقش وأعشاش الطيور وأغصان الصفصاف خلف الجبل، لاح للأعين مجددًا منظر الفلاحين والحقول اللا نهائية، واكتنفت شرائط من الضباب مواضع كثيرة، وقد اندمج كل ذلك في السماء الخريفية الملبدة بالغيوم، ومرة أخرى لم يعد المرء بوسعه أن يسمع حفيف النباتات ولا أصواتًا حية، بل بدا الطريق ميتًا. أخيرًا بدأ يظهر على اليمين منزل أحد السادة، واقترب، وها قد بدا منظره واضحًا على الأرض. كل شيء فيه لا يدل على غياب المالك وحسب، بل يشير أيضًا إلى خراب قديم؛ تم تثبيت مصاريع النوافذ بالمسامير بإحكام، وبعضها قد اقتلعته الريح، وتأرجح على مفصلة واحدة سقطت على قاعدة متصدعة ومنهارة. حتى الدهان على السطح شطفته الأمطار هنا وهناك، فانكشف عفن وثقب دودي، وتحطمت تقريبًا كل الألواح الزجاجية الخاصة بهذه البناية الآيلة للسقوط، وكان السطح المتعفن لهذه البناية، أو بالأحرى هذا الحطام، قد امتلأ تمامًا بصفوف غير مستوية من أعشاش السنونو، ولاحت هذه الأعشاش في الزوايا المعتمة أمام الجدول أسفل الأفاريز. بدا أن بعض طيور السنونو لم تغادر منزل السادة القديم هذا وأحيته بوجودها المؤقت في الوقت الذي اكتست فيه أشجار السنط والزيزفون الداكنة المحيطة بالمنزل بطبقة خضراء سميكة، واحمرت أزهار الخشخاش وعود الصليب في الحديقة الأمامية أمام الشرفة الخارجية، وبرزت من قلب العشب الذي أخفاها قمة نبات الخبيزة الطويل، وقد حفظتها بصورة لا يعلمها سوى اللّه مصادفة غريبة في خضم كل هذا الخراب. لكن الآن لم يكن هناك وجود حتى لطائر السنونو، وبدا المنزل كئيبًا وعابسًا بفعل الأشجار السوداء العارية من الأوراق والأجمات الذابلة والعشب الذي أنبتته الأمطار الأخيرة على الأرض الرطبة.

عندما عبر أنطون بالقرب من المنزل لم يبطئ سرعته لكنه خلع قبعته، وهكذا سار بامتداد الحديقة القديمة والأجنحة الخارجية والمنحل، حتى وصل أخيرًا إلى الحظيرة والإسطبل. هنا لم يقتصر الأمر على أنه ارتدى قبعته مجددًا، بل توقف. خلف السياج السميك تكوَّمت كومة من الحنطة المحصودة تجذب الأعين صوبها تلقائيًّا وتثير حسد المارة ظلت على مدار بضعة أعوام على حالها لا يمسها أحد بسوء، تدعو كل من يمر بها إلى اشتهائها من كل قلبه قيل في الحي إن هذه الكمية الكبيرة من الحبوب كان من المقرر أن تظل هنا في انتظار لحظة مواتية وسعيدة؛ تلك اللحظة التي يفشل فيها الحصاد في أحد الأعوام في المقاطعة، كما أكدوا أن لصاحبها اعتباراته

الخاصة، والتي يمكن بسهولة وصفها بالجشع، ولكن يستحيل بالطبع أن يثق المرء في الإشاعات؛ فما الشيء الذي عجزت الإشاعات عن تلفيقه؟! كلما نظر فلاحنا إلى هذه الكومة ازداد خفضه لرأسه، واللّه يعلم السبب الذي أحزن الفلاح غلبه الفكر بقوة إلى حد أنه لم ينتبه إلى الحطب الذي سقط من عربته، بينما كان قبل ذلك يجمع بحرص الحطب الذي يجده على حافة الطريق.

حتى هذه اللحظة لم تكن القرية قد ظهرت بكاملها بعد؛ كستها الغيوم الداكنة الموجودة فوقها بظل رمادي لا يمكن اختراقه، إلا أن الأدخنة البيضاء المتصاعدة في هذا الأفق الرمادي دلَّت على قرب الأكواخ الصغيرة. أول ما لاح على الطريق كان دكان الحدادة الصغير ووقف على عتبته الحداد قوي البنية فافيلا. أومأ برأسه بلطف إلى أنطون وصاح قائلًا:

- من أين جئت؟

لم يصله رد.

- أجئت من الغابة؟

تثاءب ومن ثَم صلَّب على فمه ([3]). هناك لاحت المتاجر الكبيرة، ومن خلفها بساتين الفلاحين الكثيفة، كما امتدت هناك قرية تروسكينو ذاتها الواقعة عند منحدر الوادي. وقف في الشارع حشد من الصبية القذرين يلعبون الكعاب ([4]) بالقرب من البئر. بدوا كأنهم لم يلحظوا شدة البرودة، والأكثر من ذلك أنهم لم يقلقوا مطلقًا من التعثر في الوحل حتى ركبهم كالبط، وبينهم مجموعة من الفتيات يحملن أطفالًا صغارًا على صدورهن. ضربت هذه المربيات البالغات من العمر سبعة أو ثمانية أعوام بقبضاتهن، وقفزن على قدم فالأخرى، وحينها صارت البرودة شديدة بالفعل، لكنهن لم يتركن بالرغم من ذلك هذه الصحبة المرحة، إلا أن بعضهن لففن أنفسهن بغطاء الوالد ونظرن بصمت وسكون إلى اللاعبين واللاعبات.

عبر فانيوشكا بالقرب منهم، وكان قد بدأ يتلوى من فرط البرودة على الجواد، إلا أنه تمدد فجأة وشد أطرافه وصاح بكل ما أوتي من قوة:

مهلًا، ابتعدوا، سأسحقكم. ألا ترون الجواد يمر؟

أفسح الجمع الطريق رامقين الفارس بنظرات حسودة. واحدة من الفتيات ذات شعر أحمر أشعث وأنف أفطس، وكسيحة بالإضافة إلى كل ذلك، انطلقت لتطارد العربة، وهي تقفز وتدور على قدم واحدة صائحة:

- أيها العم أنطون، أيها العم أنطون، دعني أركب العربة.

- ابتعدي يا عزيزتي عن العربة، ابتعدي.

ثم قال أنطون مهددًا بالحطب:

- ألم أقل لكِ ابتعدي! لماذا تسمَّرتِ؟ ابتعدي.

توقفت الفتاة وتركته يمر لبضع خطوات ثم قفزت خلفها مجددًا، لكنها بدت هذه المرة أكثر حقدًا؛ مشوهة وذاوية بدرجة لا تُضاهى، وقد صاحت بصوت أعلى وبقدر أكبر من الإصرار حتى وهنت قواها في النهاية وتوجب عليها أن تتوقف عن مطاردتها، لكنها لم تُفوِّت حينها فرصة أن تمد لسانها لأنطون وترفع قميصها ([5]).

كان كوخ أنطون عند أطراف القرية، وقد أكمل الحد الأيمن لها؛ ذلك الحد البارز إلى الأمام قليلًا عند هذه البقعة. بدا مندهشًا من تداعيه؛ فأحد جوانبه المتاخم لطرف القرية قد تعفن كلية، ومن ثَم تمايلت بقية أجزاء الكوخ. توجه السقف نحو اتجاه مختلف تمامًا من نوئه تحت ثقل القش، ومن ثَم انزلق صوب الأمام، وكان مُهدَّدًا بالتهاوي في أي لحظة. لم تكن هناك مدخنة، واستُبدل بها وعاء خزفي ذو قاع مكسور ليسمح بخروج الدخان. أما الديك الخشبي الذي كان في أفضل أوقاته يزين الجزء العلوي من السطح، فقد اتخذ اتجاهه الخاص أيضًا في أثناء هذا الانهيار العام، ومال بحزن صوب جهة اليسار. بدت النافذة الصغيرة الوحيدة المغطاة بالخرق والطين كريهة بصورة لا توصف. دُعِّم الكوخ من كل ناحية بكتل معقودة، فبدا كمتسول عجوز يستند إلى عكازه. باختصار، كل ما في الكوخ كان مائلًا ومتداعيًا. كان النظر إلى هذا المسكن يبعث حزنًا وكآبة لا يمكن التعبير عنهما، حتى الجار ستيبان بيتشوجو والذي كان بصورة عامة لا يبالي بأي شيء في الحياة، عدا زجاجة الفودكا ربع اللتر، لم يكن يمر أمام كوخ أنطون من دون أن ينظر إليه من كل الجوانب ويهز رأسه الأصلع بقلق.

بالرغم من ذلك، مد صاحبا هذا الكوخ الحقير الخطى بوضوح، وكان وجهاهما يشرق بالاقتراب منه، وتنيره ابتسامة ودية، بل إن فانيوشكا لم يستطع حتى أن يتمالك نفسه من الصياح عدة مرات متتالية وهو في أوج درجات البهجة:

- عمي أنطون، لقد وصلنا إلى المنزل، انظر يا عمي أنطون، انظر، ها هو المنزل، ها هو.

عند وصولهما هرعت للقائهما صبية صغيرة في السادسة، وصفقت وضحكت وركضت حول العربة، من دون أن تعرف كيف يمكنها أن تُعبِّر بصورة أفضل عن فرحتها، وقد أمسكت بالجزء السفلي من معطف أنطون القصير، وتعلقت به. أمسكها الفلاح وأشار بإصبعه إلى العربة، وأخرج ببراعة غصنًا

أحمر لصفصافة من وسط الأغصان، وقدمه للصبية، وربت عدة مرات على رأسها ثم تركها تنطلق مرة أخرى. كانت الصبية الصغيرة في حالة بهجة لا توصف بسبب هذه الهدية الثمينة. قال العم:

حسنًا يا فانيا، انزل بسرعة من على ظهر الجواد، وادخل مع أختك إلى الكوخ بسرعة صوب الموقد. ألا تريدان أن تأكلا؟

صاح الصبي الصغير:

- عمي أنطون، أنت حبيبي وعزيزي. دعني أزيل السرج من على الجواد، وسآكل بعدها.

- وماذا أفعل حين تتجمد تمامًا من البرودة؟

- لن يحدث ذلك، لن يحدث ذلك يا عمي العزيز. أعدك بذلك. أكسيوشكا، ادخلي أنتِ الكوخ، فلا بد أن تدخلي، وأنا سآتي حالًا.

ليست لدى العم القدرة على النزاع طوال الوقت، ومن ثَم أذعن، وسرعان ما ذهب الثلاثة إلى الشرفة الخارجية، ومن هناك دخلوا الكوخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

-2-

المعدمة

لم تكن زوجة أنطون بمفردها، فأمام الزاوية الحمراء للكوخ التي اسودت إلى حد أن صار من الصعب التمييز بينها وبين الأيقونة المعلقة عليها، جلست ضيفة عجوز في الخمسين من العمر. سقط شعاع الضوء القادم من النافذة الصغيرة الوحيدة المضيئة عليها مباشرةً. كان وجه العجوز ذاويًا ضاربًا إلى الصفرة، وضفائر شعرها رمادية، تبدو مجعدة أسفل منديل مزين بأشكال مربعة، وعيناها بنيتين تطلقان من محجريهما نظرة نافذة حادة، وكان أنفها حادًّا صغيرًا، وذقنها بارزًا، ترتدي أسمالًا بالية وتستند إلى عصا. كل هذا جعلها تشبه - ولا أفضل من ذلك - بابا ياجا ([6])، أو على الأقل ساحرة القرية العجوز. لكن في الحقيقة لم يكن الأمر كذلك، فالعجوز لم تكن ببساطة سوى واحدة من هؤلاء المتسولين البائسين الذين ليست لديهم أسرة ولا عشيرة أو قبيلة، يَجرُّون أنفسهم من قرية لأخرى ويتناولون طعامهم من الصدقات التي تُقدَّم إليهم أو كما يقول العامة: «يطلبون صدقة عند النوافذ».

قال أنطون، وقد بدا عليه عدم الرضا عن حضور ضيف:

- مرحبًا يا أرخاروفنا.

- مرحبًا يا معيلي.

هكذا أجابت العجوز متنهدة، وقد أمالت رأسها وكشف مظهرها عن أشد علامات الوهن والأسى.

قال الفلاح بسخرية واضحة:

- لماذا لم نرَكِ هنا منذ فترة؟ لقد ظننا أنكِ لن تعودي إلى هنا مجددًا.

- أسينكا؟

- هل العجوز صماء؟

- لا أسمع ما تقوله يا معيلي.

صاح أنطون:

- ما الذي جعلكِ تغيبين عنا طويلًا؟

تأوهت بحزن قائلة:

- جئت من أجل الخبز يا عزيزي. ألن يشفق الطيبون على شيخوختي ويعطوني خبزًا؟

قال الفلاح محدقًا فيها:

- بلى، ولكن ماذا أقول؟ الجميع يريدون خبزًا. ربما لا يشعر الآخر بالقدر ذاته من الألم من فرط الاحتياج، ولكن انظري إليه وستجدينه يئن فعلًا من فرط الجوع.

أجابت معتبرة أن العبارة الأخيرة مُوجَّهة إليها شخصيًّا:

- آه من الجوع يا عزيزي، آه منه. تمر الأعوام في الشيخوخة بمرارة، ولا تجد مكانًا لتموت فيه.

قال صاحب الكوخ بحزن:

- آه يا جدتي، يبدو أن نفسكِ تتألم كثيرًا من فرط الفقر. يقولون إنه عبثًا يلبس المرء هلاهيل ويسير يطلب صدقة باسم المسيح، ويقولون إنه يصير أغنى من أي واحد منا ويكوِّم المال أكوامًا، أهذا صحيح؟

ونظر إليها نظرة مرتابة.

- ماذا؟ لم أسمع ما قلته يا عزيزي.

- ألم تسمعيني تمامًا؟ انتظري حتى أخلع حذائي وستسمعينني.

بعد أن قال ذلك اقترب أنطون من الموقد وبدأ يخلع ثيابه. مع ذلك بدا أن لكلمته تأثيرًا غير عادي على المرأة الصماء، فقد بدا وجهها وكأن الحياة قد دبت فيه فجأة، والعينان اللتان ظلتا منخفضتين ارتفعتا سريعًا ونظرتا إلى الكوخ. اقترب صاحب الكوخ منها وجلس على دكة صغيرة، وعاد وجه أرخاروفنا يعبِّر عن الأسى والقنوط ذاتهما.

- ماذا قلت يا عزيزي؟

كرَّر أنطون على مسمع المتسولة الشائعات التي تدور عنها في القرية. قالت وهي تهز رأسها الأشيب:

- آه آه آه! اللّه وحده يعلم ماذا يمكن أن يقول الأشرار، والخداع الذي يؤدونه بكلماتهم الشريرة.

- وكم يبلغ الربح؟ انظري بنفسكِ منذ كم سنة وأنتِ تتسكعين وتدقين النوافذ طلبًا للصدقة! أين تكومين المال؟ من الواضح أنكِ تدفنينه لينفعكِ يوم البلية.

- يبدو كل شيء - مهما كان تافهًا - في يد الغريب عظيمًا وكبيرًا. ويجوب المرء العالم ولا يجد حتى خبز بل عجين. آه آه آه!

أجاب أنطون وقد هدأ قليلًا:

- حسنًا، سأفسر قولي. كل ما أقوله هو أنه إذا وُجِد المال فسيُعرف مالكه. فارفارا، لماذا تعبسين؟ أعدي الغداء. لكل شيء أوان. أعدي الشاي أيضًا، الطفلان يتضوران جوعًا.

وجَّه هذه العبارة الأخيرة لزوجته، وهي امرأة بسيطة جلست صامتة في زاوية المكان على دكة بمعزل عن المرأة العجوز. حتى هذه اللحظة لم تشارك في الحوار، واقتصر أمرها على النظر بين الحين والآخر إلى زوجها. ما إن سمعت كلمته حتى نظرت إليه بوجهها المنهك والشاحب، وتنهدت قائلة:

- ماذا أُعد لكم يا أنطونوشكا ([7])؟ آه، ليس عندنا شيء.

- ألم يتبقَّ لدينا بعض البصل؟

- لا، لم يتبقَّ. لقد تناوله الطفلان كله.

وتنهدت مجددًا.

- فلتأتينا إذن ببعض الخبز والكفاس ([8]). تبدين عابسة وحزينة طوال الوقت.

نهضت فارفارا، وتناولت كأسًا من على الرف وسكبت بعض الكفاس من الإبريق، ثم أخرجت من صندوق الطاولة بقايا رغيف من الجاودار ومملحة وسكينًا، ووضعت كل شيء في صمت أمام زوجها. بعد ذلك عادت إلى مجلسها وطوت ذراعيها وظلت تنظر إليه بانتباه بليد.

صاح أنطون:

- هيا أيها الصبيان، يبدو أنك سقطت فعلًا على الموقد. تعالَ هنا، لديَّ هنا طعام رائع، إمممم! تأخر لحظة أخرى وستجدني قد أجهزت عليه. انزل من على الموقد بسرعة. وأنتِ يا جدة، ما بكِ؟

وواصل بصوت لا ينم عن أي استياء:

- هل ستكسرين الخبز مع زوجتي؟ لماذا ترفضين؟ اكسري خبزًا وكلي. إذا أردتِ خذي ملعقة، اجلسي، يعيش المرء على الطعام، وما يأكله هو ما يجعله حيًّا.

- شكرًا يا عزيزي، وشكرًا لزوجتك، فقد أطعمتني. عسى أن يمنحكما الرب أعوامًا طويلة هانئة.

في هذا الوقت هرعت أكسيوشكا إلى العم وزحفت على حجره واحتضنت عنقه الداكن بذراعيها النحيفتين. قال الرجل وهو يُقبِّل الطفلة:

- يا لها من فتاة مدللة أيتها الجدة!

وواصل رابتًا على رأسها:

- إنها فتاة شريرة، اجلسي هنا أيتها الطفلة الماكرة، اجلسي بالقرب من عمكِ وكُلي. ولكن أين فانيوشكا؟

- لقد خرج إلى أصدقائه في الشارع يا عمي.

- يا له من ولد! فلتسامحني يا رب، ليس في ذهنه شيء سوى الخروج من المنزل. انتظري يا أكسيوشكا حتى يعود وسيكسر كلانا عنقه. اسمعي يا جدة، لا يزال بإمكان الرجل القوي أن يدافع عن منزله ضد الجميع.

قالت أرخاروفنا:

- فليكن الرب معه، لا تزعجه. دعه يتدلل قليلًا ما دام لم يكبر بعد.

- أي مدلل تقصدين؟! لو نظرتِ إليه لوجدتِه صبيًّا بالغًا، رشيقًا ومرحًا، يفهم كل شيء. صحيح إنه يبدو صغيرًا، لكني كنت أمزح فعلًا، ولأصدقك القول أنا لا أضربه. كلاهما عزيز عليَّ أيتها الجدة، وليس عبثًا أن أشعر بمدى معزّتهما (وواصل حديثه مداعبًا أكسيوشكا) آه! لو لم يكونا كذلك بالنسبة لي لصارت حياتي وحياة زوجتي مذلة، كل شيء في حضورهما يبدو كما لو أنه أكثر إثارة للبهجة حقًّا.

- إنهما الآن لا يزالان صغيرين، ولا يفهمان شيئًا، ولكن عندما يكبران سوف يشكرانك يا عزيزي على الخير الذي أسديته لهما.

- آه يا جدتي، عسى أن يكونا بخير، وأي شيء سيتبقى لديَّ بالرغم من فقري سينالانه أيضًا.

سألت العجوز فجأة:

- صحيح يا عزيزي، هل يرسل لك أخوك أي رسائل؟

- لا، منذ أن أخذوه للجيش لم يصلنا لا حس ولا خبر لا منه ولا من زوجته، وكأن كليهما قد تلاشيا. في العام الماضي أرسلنا إليهما خطابًا ونصف روبل، وكان هذا آخر ما أُرسِل، ونود أن نتحقق من حالهما، ولكن لا رد يأتينا منهما، واللّه وحده يعلم هل هم أحياء يرزقون وبصحة جيدة أم لا. في العام الماضي جاء بعض الجنود، وسألناهم، فقالوا لا نعرف وما الذي يمكننا أن نفعله؟ أظن

أنكِ قد قلتِ لنا أيضًا أيتها العجوز إنكِ لا تعرفين شيئًا عن ابنكِ منذ أن تم تجنيده.

- لا يا عزيزي، لم يصلني شيء منه.

هكذا قالت العجوز بحزن وإلتفتت إلى الناحية الأخرى. حاول أنطون وزوجته أن يواسيا العجوز المتسولة. بدأ أنطون:

- نعم، لا بد أن المرء في شيخوخته يشعر بالمرارة خوفًا من أن يموت ولا يجد من يدفنه.

- آه يا معيلي، ليس لديَّ أحد يا عزيزي.

- إذا أردتِ الحقيقة فلن أخطئ إذا قلت إني ليس لديَّ أخ. ليتني حتى أستطيع أن أبكي معه الآن على الأحوال عليَّ أن أعترف بالحقيقة، لم تكن الأمور جيدة بيننا كان فلاحًا سيئًا، لا يكدح، مخمورًا دائمًا، ولا يعمل شيئًا، ومن الواضح طبعًا أي خير يُمكن أن يُنتظر من إنسان مثله إذا عاش مع أخيه. أسفي على جدته، لقد كانت امرأة رائعة ووديعة وكادحة، ولكن اللّه موجود، وهذه هي إرادته. آه آه!

وضع أنطون الملعقة علي حافة الكأس، وأسند ظهره إلى الحائط وتوقف عن تناول الطعام. ظل طويلًا جالسًا على هذه الحال واجمًا من دون أن ينبس بشفة. اقتصر الأمر على أنه بين الحين والآخر كان يداعب أكسيوشكا التي أسندت رأسها الأشقر إلى حضن عمها، وقد أخذت تعبث بالصليب النحاسي المعلق على صدره. تدريجيًّا عبس وجه الفلاح الطيب والوديع، وأظهرت ملامحه بوضوح أن السعادة والهدوء المؤقتين قد تلاشيا من نفس المسكين، ولاح بوضوح على ملامحه أثر شعور بالقلق والجزع، حاول بوضوح ألا يظهره أمام زوجته، ولذلك كان ينظر إليها خلسة بين الحين والآخر. أخيرًا استند أنطون إلى الطاولة، ونظر مجددًا إلى زوجته، وقال للعجوز بصوت كشف بوضوح عن استعداده لإخبارها بشيء مختلف تمامًا:

- حسنًا يا جدتي، مرَ وقت لم تكن معيشتي فيه أسوأ من معيشة الآخرين. كان كل شيء مرتبًا ومُرضيًا في الحظيرة؛ الخبز والجدة، وستة أو سبعة أبناء، وكان هناك أيضًا ثلاث بقرات وجوادان، كنت أبيع، ويُقدَّر ما أبيعه كل شتاء بما لا يقل عن 60 روبلًا لحبوب الجاودار وحدها، وعشرة روبلات للبسلة، أما الآن فقد وصل الأمر إلى أن يسعد المرء سعادة بالغة إذا وجد رغيف عيش وحسب ليأكل. ولا ينال المرء شيئًا آخر إلا إذا مات أحدهم في القرية واستدعوه لقراءة المزامير على روحه، وينال حينها عشرة كوبيكات.

إلتفتَ صوب فارفارا، وكانت جالسة في موضعها وقد أحاطت وجهها بيدها، وأدارت له ظهرها بعض الشيء. تلعثم أنطون فور أن رأى الدموع قد انسكبت بين أصابعها. رفع صوته أكثر من ذي قبل قائلًا:

- نعم، نعم يا جدتي، هكذا هو الأمر وهذه هي الحال. يبكي المرء على حاله فيجد الناس تقول له: يكفي ذلك. لكني لا أقنط أنا وزوجتي (وينظر إلى فارفارا) ولا نغضب ربنا. حاشا. عندما نعرف أن هذه هي مشيئته لا نقاومها.

- آه آه آه، بالطبع يا معيلي. اللّه أعطى، اللّه أخذ.

قال الفلاح، محاولًا أن يعود ليبدو مبتهجًا:

- والمرء لا يعرف أين يجد شيئًا فعلًا وأين يفقده. يوم حلو ويوم مر؛ يوم يسكر المرء فيه ويتناول طيب الطعام، ويوم يبحث فيه عن كسرة خبز ويصب بعض الكفاس. لا بأس، تكفي كسرة خبز وملح. لا يعرف المرء أين هو نصيبه. آه يا فارفارا، كفاكِ يا فارفارا، كفاكِ حقًّا. عبثًا سوف تقتلين نفسكِ بالبكاء. أقول لكِ كفى، الحزن لن يفيدكِ. لن يفيدكِ حقًّا.

أجابت العجوز:

- بالطبع مصابك عظيم. كم شديد فقرك! لكن على الأقل لديك مكان لتبكي فيه، أما أنا اليتيمة المريرة فليس لديَّ مكان لأبكي فيه.

- لا هذا مؤلم، ولا هذا يجلب عزاءً عظيمًا؛ الأمر سيان. عِش إذا استطعت ومُت إذا أردت. آه أيتها العجوز، صار الأمر مريرًا أن يحيا المرء لأخيه في هذا العالم.

- آه آه. صار مريرًا فعلًا يا عزيزي، بل شديد المرارة إلى درجة يصعب وصفها.

نهضت فارفارا سريعًا وخرجت من الكوخ. نظر أنطون إلى الباب وقال:

- كما ترين يا جدتي، إنها تسحقني بدموعها الطيبة. المرأة ضعيفة وواهنة. يمكن لمصيبة أن تحل في أي وقت بسهولة وسرعة. سأنتهز فرصة عدم وجودها الآن وسأحدثكِ بصراحة، سأحدثكِ بصراحة، لقد ضعنا؛ أنا وهي والأطفال، ضعنا تمامًا. هذا هو الخبز الذي تأكله (ويقول بمرارة)، ولقد توسلتْ إلى جارنا ستيجني من أجله. شكرًا له على مساعدته. آه، أكان يجب أن تمضي حياتي بهذه الطريقة؟

قالت أرخاروفنا، وقد بدا أنها لم تسمع شيئًا مما قاله أنطون:

- يُقال إن ستيجني هذا ثري طيب.

- من ناحية الثراء هو ثري فعلًا، لكنه أسوأ من أخي المعدمِ.

- قالت لي سافيليفنا يا معيلي إن لديه ثلاثة جياد ومنحلًا، ويقولون أيضًا إنه يبيع في الخريف، وإن لديه وفرة من المال والشاي.

- فليكن الرب معه. (وأكمل بصراحة قائلًا) أنا أحدثكِ عن بليتي. آه، إنها قسمتي، قسمتي، أناضل منذ خمسة أعوام، والوضع يزداد سوءًا كل يوم.

- لكن أفترض يا عزيزي أن ناظر الأرض لا يشكو منك، أليس كذلك؟

- لا يشكو؟! ليت الأمر يقتصر على الشكوى! وهل لدينا هنا حياة؟ لا، لقد قضى عليَّ الوغد، وصادر مني كل شيء. منذ مطلع الفجر وهو يطاردني. ليس في وسع المرء سوى أن يحتمل ويحتمل. هذا ما وُلدنا من أجله يا جدتي، الآن حان وقت دفع ضريبة الرأس ([9])، ولكن من أين آتي بها؟ من أين؟ لقد دمرني وتركني أهيم على وجهي، والآن يرعبني! يقول لي: سأرسلك إلى التجنيد ولن أراعي زوجتك، هذا ما يقوله. آه يا جدتي، آه، لو كنت بمفردي، لم أكن لأواجه مشكلة. حسنًا، فرد واحد يمكنه تدبر أمره، ولكن عندما تكون أسرة في عنقي، ماذا أفعل؟ أعلم أني أغضبت الرب.

دخلت فارفارا. صمت الزوج. في اللحظة ذاتها تقريبًا تناهى إليهم صوت طرق على البوابة. اقترب أنطون من النافذة الصغيرة المطلة على الفناء الخارجي وصاح:

- من هناك؟

لم يأتِه رد. كرَّر الفلاح بعدما فتح النافذة:

- من هناك؟

- أنا أيها العم أنطون.

تردد صوت رنان رقيق من المدخل، ودخلت الكوخ راكضةً فتاة في الثانية عشرة من العمر.

كان وجهها الشاحب والمستطيل بصورة لافتة، ومظهرها كله بشكل عام يلفت الانتباه تلقائيًّا؛ ذلك الانحراف في منتصفه والشفتان المزمومتان والمنحنيتان قليلًا عند الزاويتين، والملامح الرقيقة لوجه صافٍ، والأعضاء الصغيرة الواهنة فيه... كل هذا ميَّزه فورًا عن الشكل الشائع لأطفال الفلاحين الممتلئين، وأجسادهم ذات الاستدارة الخشنة. أكثر ما ميزها كان هاتين العينين السوداوين اللتين أضفى عليهما الشحوب غير العادي ونحول الوجنتين مزيدًا من البريق والألق. أما شعرها الأسود المصفوف بلا مبالاة حول عقصة، فقد تناثرت خصلاته حول عنقها اللطيف الذي يشبه عنق البطة. تميزت ثيابها أيضًا عن ثياب الفلاحين؛ تألفت من فستان أزرق غير متقن

الصنع، بيتي النسج، من قماش مخطط، ممزق عند المرفقين، مرقع بقطع قماش أبيض. كان الفستان يغطي بالكاد ركبتَي الفتاة، أما من ناحية العنق وحتى انفراجة الكتفين فقد تدلى بشكل أخرق وطيات واسعة وغطى وطمس صدرها وكتفيها. توقفت الفتاة في منتصف الكوخ، وقد فتحت شفتيها وضغطت على صدرها بيديها الصغيرتين، فلم تكن قد تمالكت أنفاسها من التعب. في غضون ذلك اقترب الزوج والزوجة منها. سألها الزوج أولًا بارتباك ملحوظ:

- ما الأمر يا فاطيموشكا؟ ها؟ أتريدين بعض التوركا ([10])؟

أجابت الطفلة الثرثارة، مضيفة إلى كل كلمة حركات سريعة حيوية بذراعيها:

- لا يا عمي أنطون لا. نيكيتا فيدوريتش هو من أرسلني. لقد أمر باستدعائك. تعالَ بسرعة وإلا عاقبني.

وألقت رأسها للخلف لتزيح خصلات شعرها التي غطت وجهها.

جلست فارفارا على الدكة وملأت الكوخ بنحيبها، أما أنطون فقد تخدر قلبه. صاح وهو يضرب الأرض بقبضتيه بيأس:

- ها قد حلت المصيبة. افتحي البوابة. ها هو يطلب ضريبة الرأس مجددًا. كفاكِ يا فارفارا، دموعكِ لا تفعل شيئًا سوى تعذيبي. يا للبلية! يا للبلية! ما العملَ!

كان اضطراب الفلاح الفقير عظيمًا، حتى إنه ظل لبعض الوقت يسير داخل الكوخ كالمجنون، يختلس النظر صوب كل زواياه من دون سبب، يعدِّل غطاء الدلو تارة، وتارة يمسك بالمملحة، وتارة بقضيب تذكية النار، وأخيرًا خرج من سكنه، وقد نسي حتى أن يلقي على كتفيه معطفه المصنوع من جلد الغنم. صحبته ولولة فارفارا حتى وصل إلى الشارع. ما إن وصل إلى الفناء الفخم الذي يضم الجناح القديم حيث مكتب ومسكن الناظر، حتى رأى أنطون نيكيتا فيدوريتش الذي كان في انتظاره بالفعل عند عتبة المنزل. باقتراب الفلاح من الشرفة الخارجية شعر أن ركبتيه ترتعشان والأنفاس تتوقف في حلقه، وتملكت قشعريرة عظامه. أخفض رأسه واقترب بخطوات بطيئة خجولة من المالك. كان إنسانًا في منتصف العمر؛ أي يتراوح عمره بين الأربعين والخامسة والخمسين، متوسط الامتلاء والطول، رأسه كروي ذو شعر أشقر كثيف، يغطيه بعض الشيب، مهذب بالمشط صوب الأسفل لينسدل تقريبًا على كتفيه؛ الأمر الذي جعل نيكيتا فيدوريتش يبدو من بعيد أشبه بكلب بولدوج. لعب الحاجبان الأسودان الكثيفان دورًا أيضًا في إسباغ هذا الشبه بينهما، وكذلك العينان الرماديتان الناتئتان، وعظمتا الوجنتين الواسعتين

القلموقتين ([11]) والذقن الممتلئ ذو الطبقات المتعددة، والساقان القصيرتان اللتان تبدوان كطوقين، أو كما يقولون كـ«عربتين». بالرغم من كل هذه العيوب التافهة والتي - على ذكر الأمر - لم تمثل أي شيء منفر بوجه عام، ومن ثَم لم يفقد جسد الناظر قدرته على إسباغ الشعور بالأهمية أو الكبرياء الهادئة الموجودين دائمًا في ملامح الإنسان الذي يشعر بجدارته الشخصية. على النقيض؛ كان لجسده قدر جيد من التلاؤم، بل وحتى الانسجام، وكان مميزًا على نحو شديد. لكن إذا أمعنا النظر فسيستحيل علينا ألا نقرأ في هاتين العينين الرماديتين المفعمتين بالحيوية، وفي هذا الرأس المستدير السمين، وقبل كل ذلك في هاتين الشفتين المنتفختين، شيئًا ما متعجرفًا ووقحًا ونذلًا، يذكرنا تلقائيًّا بخادم خانع أو وصيف أو بصورة عامة عضو وسط جماعة من الأنذال في فناء أسرة غنية أرستقراطية. في هذه اللحظة كان يرتدي أرخالوك ([12]) رماديًّا قطنيًّا ذا صف واحد من الأزرار، مبطنًا بجلود الحمل المدبوغة، مزررًا إلى أعلى، وقلنسوة ضيقة صوفية مبرقشة، وسروالًا أزرق واسعًا للغاية. على العروة العليا للأرخالوك سلسلة ذهبية سميكة، تحتوي على مفتاح للساعة. كان واقفًا عند الباب وقد باعد بين ساقيه، واضعًا يدًا في جيب سرواله الواسع، وأمسك بالأخرى غليونًا تركيًّا، وبدا الأمر كما لو أن ما ينفثه الغليون لم يكن دخانًا بل شعورًا بالجدارة الذاتية. قال لأنطون:

- أتمزح أم ماذا تظن نفسك فاعلًا؟ لقد دفع الجميع ضريبة الرأس، فهل لديك أذن واحدة فقط أيها الوغد؟ ألم أقل لك سابقًا؟ قُل لي هل قلت لك أم لا؟ هل سيسوء الأمر؟

وهز الناظر رأسه مجددًا.

- قلت يا نيكيتا فيدوريتش.

- وماذا إذن؟

أجاب الفلاح خافضًا رأسه:

- إنني أناشدكم أن تشملوني بعطفكم. ليس لديَّ مال لأدفع الضريبة، وليس لديَّ من أقترض منه. افعل بي سعادتكم ما يحلو لكم، فالسلطة في أيديكم. اكتب إلى السيد، وليعاقبني إذا أراد، لكني أقول لكم - واللّٰه الشاهد - إنني لا أجد وسيلة أحصل بها على المال.

- آه! أنت غشاش ومحتال، بسببك سوف أزعج السيد. لا ينفعك سوى السوط، أما ضريبة الرأس فلا تدفعها! ولكن ما هذا الذي قلته؟ أتقول لا أحد يدفع لك؟ أنا أعرفكم جيدًا أيها الفلاحون. ألديك جواد؟

تجمد أنطون، ولفت الرعشة جسده كله. نظر سريعًا إلى نيكيتا فيدوريتش وقال بصوت مرتعش:

- نيكيتا فيدوريتش، هل تريد أن تحطمني تمامًا؟

- ماذا؟

- نيكيتا فيدوريتش، آه يا سيد، أشفِق على الأطفال الصغار ولا تشردنا.

قاطعه الناظر وقد تقدم خطوة للأمام:

- هيا قل لي المزيد، قل لي المزيد، سوف أحطمك، اذهب بجوادك إلى سوق المدينة غدًا. (وأضاف بمكر) لقد حل الشتاء وليست لديك حاجة إلى الجواد الآن. اسمع، إذا لم أجد الضريبة على مكتبي في غضون يومين فلن أراعي أن لديك زوجة، سأحلق لك رأسك وأرسلك للجيش. لقد رحمتك فعلًا أيها الوغد.

قال أنطون وهو لا يتمالك نفسه تقريبًا من الدموع:

- نيكيتا فيدوريتش، نيكيتا فيدوريتش، آه يا سيد.

وارتمى على قدميه.

- لن يجعلني ذلك أشفق عليك. هيا اغرب عن وجهي. اذهب وافعل ما أمرتك به. هيا.

قال الجملة الأخيرة وهو يدق الأرض بقدميه.

قال الفلاح يائسًا:

- وماذا سيحل بي؟ كيف أبيع جوادي الأخير؟ سأصير مشردًا.

- حسنًا حسنًا، هيا واصل هذرك، لو لم يكن هناك سوق يُمكِّنك من بيع الجواد لما تركتك تفلت.

في هذا الوقت انفتح أحد الأبواب بشقة الناظر، وخرج منه نصف وجه أصفر لامرأة ربطت رأسها بوشاح أبيض. صاحت المرأة بصوت رائق:

- نيكيتا فيدوريتش، نيكيتا فيدوريتش، تعالَ لتشرب الشاي. لن أنتظرك، تعالَ سريعًا.

إلتفتَ الناظر إلى اتجاه الصوت، ومن دون أن ينتظر أي قول من قِبل الفلاح أسرع صوب السماور ([13]).

لم تكن هناك أي ضرورة لالتماس رحمة نيكيتا فيدوريتش؛ على الأقل لم يكن لدى فلاحي تروسكينو أدنى شك في ذلك. كان أنطون يعرف ذلك أكثر من

الآخرين. ترك الفناء ببطء وخرج إلى الشارع. بدأ الشفق، أو كما يسمونه في القرية «الحمرة»، تتمدد على الأرض، وغلَّفت الحقول هنا وهناك بعض الخطوط الرمادية الشاحبة، وامتدت حول التخوم، وانتشرت بعض البرودة في الجو. حتى أنطون لم يمضِ إلى الشارع من دون أن يدري سببًا لذلك، بل تراجع بخطوات بطيئة حول الأكواخ وبساتين الفلاحين المتاخمة.

باقترابه من مخازن الحبوب الأبعد في القرية؛ أي تلك الموجودة على أطرافها، رأى أنطون فجأة وشاحًا كاملًا مزينًا بأشكال مربعة معلقًا على ساق نبتة شائكة. هذا الظرف، بالإضافة إلى السيقان المتغضنة والمنكسرة للنباتات التي كشفت له أن أحدهم أزال أيكة ووطأها في طريقه، أدهشه تمامًا. وجد نفسه قد نسي تلقائيًّا بليته لبرهة، وتلفت حوله، وتوجه إلى الأجمات وانتزع الوشاح، وبدأ يتفحصه. ونظرًا لأن أنطون لم يجد بالطبع أي شيء، لفَّه بعناية ووضعه في جيبه ومضى، لكنه ما إن تقدم خطوتين حتى وجد جارَيه ستيبان بيتشوجو وابنه الأكبر بانتليي يركضان نحوه. بدا كلاهما مضطربًا، وكانا يركضان عل طول الطريق من دون قبعة ومن دون معطف، وكانا يلوحان بأيديهما بقوة في الهواء. ما إن وصلا إلى أنطون حتى توقفا. قال ستيبان له بسرعة:

- ألم تقابل وسيط الزواج على الطريق؟

- لا، لم أقابله. لم أقابل أحدًا.

- وما العمل؟ ألم تقابل أحدًا على الإطلاق؟

- لا.

صاح ستيبان:

- ما العمل؟ اللعنة! النساء كما ترى يجعدن الكتان ويصخن السمع كما لو أن أحدهم يتحرك داخل القفص، ويجدن فجأة الرجل جالسًا هناك، وينظرن كيف يشخر! يا للشيطان! الأمر كما يُقال في الأمثال: يصرخن ويركضن، لكن الدجاجات الثلاث يفلتن ويختفين! أتت النساء إليَّ، وركضت أنا وبتروخا ([14]) لنلحق به، ركضنا وركضنا ولم نجد أحدًا. يا له من عفريت! أمتيقن من أنك لم تقابل أحدًا؟

أجاب أنطون متعجبًا:

- لا. لم أقابل أحدًا، ولكن لا بد أن أحدهم مر من هنا، فالأجمات قد وطأها شخص ما.

ترك الفلاحان جارهما، وعادا إلى مطاردتهما.

لم يكن بالإمكان ألا يلفت مثل هذا الحدث انتباه أنطون، ففي تروسكينو، خاصة في بعض الأوقات، كانت الشائعات تنتشر عن مكائد مختلفة؛ هؤلاء سرقوا الجياد، وهؤلاء تسللوا إلى الأقفاص والغرف، وهؤلاء سرقوا مالًا وأقمشة ومختلف أنواع العلاجات المنزلية. اندفع كل ذلك مرة واحدة في رأس أنطون، ونسي تلقائيًّا بليته للحظة. عندما وصل إلى كوخه وجد الشفق قد غطى السماء تمامًا. كل شيء قد هدأ هنا منذ فترة طويلة. كانت فارفارا التي أسندت رأسها إلى الطاولة، وأمسكت بيديها ببقايا رغيف، نائمة بعمق، ولم يكن هناك سوى انعكاس الضوء من الشعلة المتوقدة في الزاوية على الأيقونة، أما بقية الكوخ فقد غاب في الظلام، وهنا وهناك كان بوسع أنطون أن يرى لمعان قضيب تذكية النار أو أي غرض منزلي آخر، وبالكاد كان يصدر من ناحية الموقد شخير بسيط صادر من الصبيين. ذكَّى أنطون النار داخل الموقد وألقى نظرة على الحوائط من حوله، وجلس بالقرب من زوجته على الدكة. أيقظت هذه الحركة فارفارا للحظة.

قالت وهي تزيح خصلات شعرها عن وجهها وتلتفت سريعًا إلى زوجها:

- ما الأمر يا أنطونوشكا؟ لماذا استدعاك هذا الوغد؟

ثم أضافت بنفاد صبر وهي تهزه من جانبه:

- لماذا لا تقول شيئًا؟

أجاب الزوج بجفاف، متنهدًا تنهيدة طويلة وكأنه يستجمع شجاعته:

- وما الذي يمكن أن يُقال؟ أمرني ببيع الجواد الأرقط في السوق يقول إني لست في حاجة إليه حيث إن الشتاء قد حل، ويمكنني أن أتدبر أمري من دونه ها قد قلت لكِ الأمر بغبائي. آه يا فاريوخا، آه يا فاريوخا، كفاكِ بُكاءً. أقول لكِ إن دموعكِ هذه تعذبني. أي امرأة حمقاء أنتِ! هل سيفيدنا العويل؟ أعرف أني أخطأت أمام وجه السيد الرب.

قالت المرأة منتحبة:

- آه يا حبيبي، لقد ثملت ببليتي آه يا عزيزي، أشعر بالمرارة حينما أنظر إليك الآن لقد قضى عليك هذا الوغد، قضى الوغد عليك تمامًا كيف أنظر إليك الآن! قلبي يذبل في داخلي لم تعد كما كنت آه.

وهنا نهضت من على الدكة وقالت بلهجة منغمة:

- آه يا نصيبنا المر، صرت كيتيمة تعيسة تشهد بلية قاسية.

- اسمعي يا فاريوخا، اسمعي يا فاريوخا ما سأقوله لكِ. (تماسك الفلاح محاولًا دعمها) لا تنهاري بهذه الصورة. لمِ ينتهِ أمرنا بعد. منذ فترة قصيرة إلتقيتُ

بفيدوتوف من فيسيلكي ووعدني بأنه سيوظفني إذا شئت، ويعطيني خمسين روبلًا في العام. كما ترين لن نموت، وسأذهب وأعمل في أرضه وأطلب منه أن يقرضني الضريبة.

- لا تخدعني يا عزيزي. لقد استعلمت عن كل شيء. لقد استأجر فيدوتوف عاملًا ليعمل بأرضه منذ فترة طويلة. آه يا قدرنا المر، آه يا قدرنا المر.

وعاودت الفلاحة الجلوس على الدكة، وازداد انهمار الدموع منها. صاح الفلاح:

- كم أنا أخرق! آه يا فارفارا، نسيت، انظري، انظري ماذا إلتقطتُ من الطريق، انظري.

قال ذلك ووضع الوشاح على الطاولة، محاولًا أن يواسي امرأته.

- كنت سائرًا في النواحي الخلفية، ونظرت فلم أجد أحدًا، وإذا بالوشاح معلقًا على ساق نبتة، فالتقطته.

- يا عزيزي، لقد أسقطته المرأة العجوز.

- أي عجوز؟

- المتسولة التي تعرج علينا.

- ماذا تقولين؟ أهذا معقول يا فارفارا؟ ألم تفيقي بعد؟

- ما لك يا عزيزي؟! لقد رأيت بنفسي كيف علقت الوشاح بحماسة.

قال أنطون وقد استغرق في التفكير:

- الأمر هكذا سيِّئ يا فاريوخا. لهذا يقول الناس إنهم يجدونها تفعل مثل هذه الأفعال. لقد انسلت سريعًا. لا، لا تدعيها تأتي مجددًا إلينا، ودعينا نعالج الأمر قبل أن تخطئ. الضيف يزور قليلًا لكنه يرى الكثير، وكما ترين، كان من الحماقة أن أنخرط في الحديث معها، ومن يعرف؟ ربما تخطط فعلًا لعمل شرير. لا يرى المرء مكنون تفكير غيره. إنها تسعى جاهدة لاستكشاف ما يجري في قريتنا. إنها ترى كم عدد الماشية والخيول، وكيف يعيش الناس، وها قد اكتشفت أيضًا أمر ستيجني بوريسوف، وهي تراقب كل شيء. لا، لا تدعيها تدخل كوخنا مجددًا لئلا يحدث شيء لا قدَّر اللّٰه.

قالت فارفارا وهي تجفف دمعها:

- إنه وشاحها، إنه هو، إنه مثقوب من المنتصف.

أجاب الفلاح هازًّا رأسه بحذر:

- حقًّا! انظري الخطية التي تجلبها على نفسها في شيخوختها، يا لها من قليلة الحياء! تتسل هنا وهناك وتبدو كما لو أنها متسولة فعلًا. ليس عبثًا يقولون إذن إنها تكوِّم المال. آه.

صلى أنطون أمام الأيقونة، وخلع حذاءه، وتنهد عدة مرات ومضى صوب أطفاله النائمين فوق الموقد ([15]).

أطفأت فارفارا النار، ونامت إلى جانب زوجها. سرعان ما خيَّم الهدوء على الكوخ. لكن من غير المعروف ما إن كان صاحب الكوخ قد نام سريعًا أم لا، فربما لم تغمض له عين.

الأمر الوحيد المؤكد هو أن صرار الليل لم ينم، وامتد صريره الحزين بهدوء ورتابة، ثم صار أكثر تكرارًا ورنينًا، وأخيرًا غطى على شخير الصبية وملأ كل أنحاء الكوخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-3-

الطريق

كانت الظلمة العميقة والمنيعة لا تزال سائدة على الكوخ الصغير عندما رفع أنطون رأسه بهدوء وبدأ ينصت مستمعًا. بعد أن اقتنع بأن زوجته والأطفال قد انخرطوا في نوم عميق هبط من فوق الموقد بحذر، يكاد يكتم أنفاسه، وبدأ يستعد للطريق. تلمَّس طريقه في الظلام حتى عثر على معطفه القصير وقبعته، ولف رباط ساقه على عجل، وقطع شريحة من الخبز ولفها داخل قطعة من القماش ووضعها في جيبه؛ وكلها أمور معتادة للفلاح. رشم الصليب أمام الزاوية التي فيها الأيقونة وخرج إلى الرواق الخارجي. لم يكن الفجر قد طلع كاملًا، لكن أول تباشيره قد لاح في الفناء. أغلق أنطون الباب المؤدي من الرواق الخارجي إلى الكوخ من الخارج بإحكام بقدر المستطاع، وتمتم قائلًا:

- فلتنعموا بنوم جيد، وليكن الرب معكم. ناموا. الدموع لا تفعل شيئًا سوى تعذيب النفس، وأنا في حالة سيئة بالفعل من دونها.

خرج إلى المكان المربوط فيه جواده الأرقط. ما إن شعر الجواد بسيده حتى أدار رأسه ذا الشعر الغزير، وحرك أذنيه وهز ذيله.

تمتم الفلاح بصوت غير صارم:

- فلتكف عن هز ذيلك، ألا تريد الخروج؟ تحرك، تحرك ولا تعاند. حتى البشر يمضون بعكس إرادتهم، ولست وحدك في هذا الأمر. تحرك، واعلم أنه قد حان الوقت لتشارك سيدك أحزانه.

شكم أنطون الفرس وقاده إلى الساحة. بدا الجواد المسكين وكأنه قد توقع مصيره كان دائمًا مطيعًا ومذعنًا، لكنه في هذه المرة صهل، ولف رأسه بعناد، وظل ينظر إلى مختلف الجوانب باستمرار، كما لو أنه يتوسل أن يُترك لحاله إلى الأبد، في مكانه الذي نشأ وترعرع فيه. ظل أنطون هو أيضًا ينظر إلى كوخه المتداعي، واللّه وحده يعلم فيما كان يفكر، فمحاولة التكهن بالأفكار التي تدور في رأس شخص آخر هي كالسير في غابة مظلمة. أخيرًا لوَّح بذراعه، واقتاد الجواد من لجامه وخرج إلى الشارع. امتطى الجواد، لكن الجواد الأرقط لم يُرِد قَطٌّ أن يمضي إلى ضواحي القرية حيث كان أنطون يقوده، بالرغم من كل الجهود التي بذلها من أجل هذا المسعى. في البداية ركض صوب البئر، ثم دار حول الشارع، وتوقف عند الكوخ. عندما رأى صاحبه أن القوة لا تجدي نفعًا، اضطر إلى أن يترجل، واقتاده مجددًا من لجامه

ليمضي به صوب ضواحي القرية. صرَّت البوابات وأغلقها أنطون. كانت الظلمة قد بدأت بالفعل في التبدد، لكن الصباح لم يكن يشي بنور صافٍ، فهناك من ناحية الشرق لم تتحول السماء إلى اللون الأرجواني، ولم ينبسط اللون القرمزي، ولا خطوط الشمس الذهبية، ولم يشِ الصباح بشمس دافئة، وكانت السماء رمادية كئيبة، وغطت الغيوم الرمادية المكان كله منذرة بطقس سيِّئ وريح شديدة.

كان الطريق صوب الضواحي صاعدًا، وفي أثناء صعود أنطون ظهر السياج المحيط بالمكان تدريجيًّا، واتخذت التلال أشكالًا جوفاء. بدا الأمر كما لو أنه في كل لحظة كان يبرز من الأرض إسطبل أو سياج خشبي جديد أو جزء من حديقة منزل أحد السادة لا يمكن الشك في وجوده في الشارع. لاح تدريجيًّا النهر بانحناءاته الشديدة، ثم ظهرت أشجار الصفصاف وقمم المطاحن. أعلى كل ذلك امتدت الحقول والغابات الكثيفة، ثم توارى كل ذلك مجددًا؛ شيء تلو الآخر. تلاشت المطحنة والمنزل الفخم والقرية، وها قد بدأ كوخ أنطون يتوارى خلف الجبل. إلتفتَ أنطون مجددًا صوب هذا الاتجاه وضيَّق عينيه وجففهما، وفجأة ضرب الجواد الأرقط وجعله يقطع الطريق خببًا. بعد أن تجاوز أنطون أراضي تروسكينو، شد الزمام وجعل جواده يخطو بهدوء مجددًا. كانت القرية قد توارت خلف الجبل منذ فترة بالفعل، ولاحت الحقول السوداء المبللة بالمطر في كل مكان، وفي أحيان قليلة كان يومض شريط من غابات الصنوبر أو القرى الصغيرة، وكانت الطرق الريفية تتناوب الظهور بين الحين والآخر.

لم يذهب أنطون منذ فترة بعيدة إلى المدينة. لم يكن نيكيتا فيدوريتش يحب أن يترك الفلاحين يغادرون القرية كثيرًا، وقد تمسك بهذه القاعدة بصورة خاصة مع من يشعر تجاههم بالعداء. كان عدم السماح للفلاح بالذهاب إلى المدينة في رأيه أمرًا حسنًا، وفي الآن ذاته إجراءً عقابيًّا شديد الفاعلية. على سبيل المثال، إذا جمع أحد الفلاحين البازلاء، فإلى أين يمكن أن يُفضي به السوق؟ السعر هناك مرتفع، ولكن لا، مهما تسارعت دقات قلب الفلاح فلن يتركه نيكيتا فيدوريتش يذهب إلى المدينة. حينها سيفكر الفلاح في نفسه قائلًا: «لن يجدي الأمر» وسيقدم البازلاء لجاره مقابل سعر بخس حتى لا تظل عنده وتتعفن في الصناديق. وهذا فلاح آخر وهبه السيد الرب بقرة شابة إضافية لا حاجة لها، فيمضي بخطوات متثاقلة صوب الناظر قائلًا:

- يعوزني المال يا سيد. تكرم واسمح لي بالذهاب إلى المدينة لبيع هذه البقرة. إني أحتاج إلى المال لأتدبر أموري.

يقول الناظر:

- آه منك، أتتذكر كيف كسرت أقراص العسل العام الماضي؟ أتتذكر كيف جلبته لي؟ ابقَ بالمنزل. كل ما تريده هو التسكع.

يفكر الفلاح في نفسه: «ليست لي قوة لأواجه السيد. سأذبح البقرة، وليكن اللّه في عوني». هكذا كان الأمر تمامًا مع أنطون، إذا لم يكن أسوأ.

لكن الأمر الآن هو أن فلاحنا بعدما سار 16 أو 17 فرستًا ([16]) صار في حيرة كاملة، وقد استيقظ فجأة من استغراقه في التفكير الذي تملكه منذ أن ترك تروسكينو، ولم يعد قادرًا على تذكر المكان الذي هو فيه، ولا حتى عدد الفرستات المتبقية للوصول إلى المدينة. كل ما تذكره هو أنه عبر بقريتَي كياسافكا وفيسيلكا، ثم انعطف يسارًا من نواحي يكيماتوفسكا. لم تكن هناك أي إمكانية للاعتماد على الجواد الأرقط في هذا الأمر عرف أنطون جيدًا أنه ما دام الجواد لا يمكنه أن يتذكر الطريق، يمكن إذن أن يقوده إلى مكان اللّه وحده أعلم به. كان على وشك التفكير في الالتفات إلى الجانب الذي ظهرت فيه على اليسار أيكات القرى الصغيرة، إلا أن حدثًا مفاجئًا تمامًا أرشده مجددًا إلى الطريق السليم؛ نظر إلى المكان حوله، ورأى عند تقاطع الطريق صليبًا خشبيًّا متهالكًا موجودًا عند أحد النتوءات. صاح وهو يخلع قبعته ويرشم الصليب بورع:

- آه، لقد نسيت تمامًا أن هذا مكان قبر العم أندريه. الطريق ينعطف من هنا إلى المدينة؛ إلى زاكورايافو. آه، لقد نسيت تمامًا وكدت أن أتوه.

وجد أنطون نفسه وهو سائر في الطريق يتذكر تلقائيًّا حادثًا ارتبط بالعم أندريه.

منذ ثلاثة أعوام كانت هناك غرفة صغيرة من الطوب والجير عند منعطف الطريق السالف ملكًا لعجوز كان يعمل بأحد الأديرة. قليل من السكان المحيطين من كان لا يعرف هذا العجوز؛ فأي شخص كان يمضي إلى المدينة سواءً على قدميه أو بأي وسيلة، رجلًا كان أو امرأة، كان يجد العجوز الأشيب في هذا المكان واقفًا عند العتبة، يهز كتابه الصغير الذي ربط به جرسًا. وكان بعض المارة يقولون له: «فليعطك اللّه»، والبعض قد يعطونه كوبيكًا لبناء هيكل الرب. اعتاد الجميع رؤيته منذ طفولتهم، وفجأة لم يعد العم أندريه موجودًا، كما لو أن أحدًا لم يكن هنا قَطُّ. ظل الفلاحون المحيطون يستفسرون ويستفسرون حتى عرفوا ما حدث في النهاية. ذات يوم، في ليلة من أشد الليالي الشتوية برودة، جاء إلى أندريه في منتصف الليل رجلان مجهولان وربطاه من يديه ورجليه وطالباه بالمال. ظلا لفترة طويلة يحاولان أن يجدا شيئًا واحدًا لدى العجوز، لكنهما لم يجدا سوى ثلاثة كوبيكات، وقد أرسل كل ما لديه إلى الدير، ولم يعد هناك أي شيء لديه. زادا في تعذيبهما

له، وظل يستعطفهما أكثر فأكثر من دون جدوى. طرحا الفلاح على ظهره وواصلا البحث. عندما فتشا كل شيء تفتيشًا دقيقًا جدًّا أدركا أنهما أضاعا إنسانًا عبثًا. لم يكن هناك سوى ثلاثة كوبيكات فعلًا في إحدى الخرق خلف الموقد. جاء أعضاء لجنة الزيمستفو ([17]) والناس من كل حدب وصوب ودفنوا العم أندريه عند منعطف الطريق ذاته، ونقلوا غرفته الصغيرة المبنية من الطوب والجير إلى الناحية الأخرى من الطريق، لكن أحدًا لم يرغب في أن يسكنها، ومن ثَم نصبوا صليبًا؛ وهو بعينه الصليب الذي ذَكَّر فلاحنا بالطريق إلى المدينة.

لم يستطع أنطون أن يستغرق في تذكر كل تفاصيل هذا الحادث الذي أثار في وقته ضجيجًا كبيرًا في المدينة، بسبب رؤيته لعربة قادمة صوبه ببطء من بعيد. بدت له في البداية كما لو أنها فارغة، ولكن عندما تخطته رأى فلاحًا مستلقيًا على أرضيتها، فسعد أنطون سعادة غامرة. صاح:

- اسمع يا أخي، هل الطريق الرئيس بعيد عن هنا؟

أما من وجَّه أنطون السؤال إليه فكان كسولًا، رفع رأسه على مضض، واستند إلى كوعه ونظر مباشرةً إلى أنطون، ثم تثاءب طويلًا، واستلقى مجددًا على أرضية العربة من دون أن يقول كلمة. صاح أنطون:

- مرحبًا بوسيط الزواج. ماذا بك؟ هل الطريق بعيد عن هنا؟

رفع الرجل رأسه مجددًا ونظر إلى أنطون، ثم تثاءب ثانيةً ولم يُجب بكلمة أيضًا واستلقى على أرضية العربة، لكنه هذه المرة ضرب الجواد بالسوط، واختفى به في لحظة عن الأنظار.

وجد أنطون نفسه وحده مجددًا وسط الحقول. جرجر أنطون الجواد بخطوات بطيئة، وهو ينظر يمينًا ويسارًا، ويدقق بصره ويفتح عينيه على آخرهما، ويلاحظ كل رابية على الطريق عسى أن يجد رجلًا حيًّا. ولدهشته وجد أحدهم قادمًا في اتجاهه أيضًا. نظر أنطون والعربة تسرع صوبه، وإذا به جواد أسود بطقم منضد وشارات نحاسية، ولم يكن جالسًا على صندوق العربة أحد البرجوازيين أو السادة، بل مجرد فلاح ارتدى قلنسوة وقفطانًا أزرق. إلا أن اللقاء لم يُرضِ فلاحنا هذه المرة، ومن ثَم حث جواده الأرقط على التحرك بسرعة، بل وبدت منه حركة أشارت بوضوح عن نيته على التنحي بعيدًا، لكنه توقف، فقد فاتت الفرصة. تعرف أنطون عبر هذا القفطان الأزرق على طحَّان تروسكينو، وكان يحاول تجنبه على مدار عدة أشهر سابقة. توقف الطحان، ونزل أنطون من على ظهر جواده. قال وقد تناول قبعته بين يديه:

- مرحبًا يا أكسينتي سيميونيتش.

- مرحبًا يا أخي. إلى أين؟

- إلى المدينة يا أكسينتي سيميونيتش لبيع الجواد. ليس لديَّ ما يكفي لدفع ضريبة الرأس. بلية وحلت فوق رأسي.

- ومتى ستدفع لي؟ لقد انتظرتك طويلًا.

تلعثم أنطون، إلا أن الطحان واصل حديثه وقد غيَّر نبرته:

- لا يجب أن يسلك الطيبون بهذه الصورة. لقد أخذت مزيدًا من الطحين في الحصاد، ومن ذلك الوقت وكأن الأرض ابتلعتك ولم أرَ منك كوبيكًا واحدًا. أهكذا تعامل أخاك؟ ولكن ثمة قانونًا، وسأذهب إلى الديوان. لقد انتبهت منذ فترة طويلة إلى أنك تتهرب مني.

- ولماذا أتهرب منك؟ لماذا؟

- الأمر واضح.

- لو كان الأمر بيدي لكنت قد دفعت ديني بكل رضا، ولكن من أين؟ أنت ترى بنفسك وضعي كفلاح. لقد فشل الحصاد، وفي كل مكان يتحدثون عن صعوبة العيش. أكسينتي سيميونيتش، لا يزال عليَّ أن أدفع ضريبة الرأس.

- هذا ليس من شأني. ليست لي علاقة بمسألة ضريبة الرأس هذه. افعل ما يتوجب عليك فعله واسلك بشرف وأدِّ حساب ما أخذته.

قال أنطون مُلينًا نبرته قدر الإمكان:

- ما الذي يقلقك؟ هل قلت إني لن ألتزم بواجبي وأسدد ما عليَّ؟ لم يُضِع حقك، وسأسدده وأشكرك عليه.

- بماذا سينفعني شكرك اللعين؟ لا أستطع صنع معطف من الفرو منه.

- إنها ليست المرة الأولى التي أتعامل فيها معك يا أكسينتي سيميونيتش.

- بالضبط؛ ليست المرة الأولى. ماذا أقول لك؟ لماذا تطحن في مطحنة شخص آخر؟

- ها؟ أتقصد مطحنة يميليانوفكا؟

- ولتكن يميليانوفكا.

- الأمر ذاته يا أكسينتي سيميونيتش.

- ماذا تعني بذلك؟ الأمر ذاته مع مطحنة على بُعد 18 فرستًا؟

- إنها بعيدة جدًّا، لكنهم هناك يأخذون منا مقابل الطحين خبزًا، وأنت تطالبني بالمال، بل وتضيف خمسة كوبيكات مقابل النقل. احكم بنفسك من أين يمكن الحصول على المال. أنت ترى بنفسك الأحوال.

- حسنًا، حسنًا، ولماذا إذن دفعت فيدوسيا وإيفان جالكا إلى الذهاب ليطحنا في يميليانوفكا؟

- متى فعلت ذلك؟ ماذا تقول؟

- ماذا تقول أنت؟ أنت أول من ذهب إلى هناك من تروسكينو.

- لقد ذهبوا من تلقاء أنفسهم.

- من تلقاء أنفسهم! أنت تلف وتدور. كأنك تقول لي إنك ولدت بالأمس وتؤكد أنك لا تكذب. أنا لا أعرف حقًّا ماذا تظنني.

- لماذا لا أرى الخير من أهل الخير منذ زمن طويل؟! ماذا تظنني قلت لهم يا أكسينتي سيميونيتش؟

- حسنًا يا أخي، واصل خداعك، لقد أردت أن أتعامل معك بشرف، ولكن انظر كيف تسلك! لقد شجَّعت آخرين أيضًا على الذهاب إلى هناك. حسنًا (وصاح الطحان وقد ازداد انفعاله فورًا) لو كان كلامك صحيحًا لدفعت إليَّ مالي. أعطني مالي وإلا شكوتك رسميًّا. أنا لست مثل نيكيتا فيدوريتش حتى أدعكم تقضون عليَّ. انتظر وسأريك.

بعد أن قال الطحان ذلك شد الزمام وابتعد. أفسح الارتباك والانزعاج اللذان استوليا على أنطون في هذا اللقاء مكانًا لحزن شديد. لقد كشف له ما حدث قسمته المُرة بأكثر الأشكال حدة وإذلالًا. لم يعد ينظر حوله، وأخفض رأسه، ونظر بحزن إلى الطريق الذي يجري تحت قدميه، وخرجت من صدر الفلاح المسكين تنهيدة ثقيلة أكثر من مرة. بهذه الطريقة، ومن دون حتى أن يلحظ، خرج من الطريق. هنا توجب تلقائيًّا على أنطون أن يتوقف عن استغراقه في التفكير ويبدي اهتمامًا حصريًّا بوضعه الحالي.

تحول الطريق بفعل الزخَّات الخريفية إلى مستنقع كثيف، وقد عجنته تمامًا قطعان الثيران التي يتم دفعها عادة من دون تدقيق، وأضاعت ملامحه، ولم يكن على المرء سوى أن يتثاءب مرة واحدة حتى يجد الجواد والعربة قد انغرسا، أو حتى هو نفسه. مهما نظر أنطون خلفه لم يستطع أن يلحظ فرعًا أو رُكامًا يحدد الطريق، بل لاح له المنظر ببساطة وكأنه حقل هائل وسط حقول ومستنقعات أخرى، وتمثل الاختلاف الوحيد في أنه وجد هنا في كل الاتجاهات حفرًا عميقة وبؤرًا شيطانية شهدت باستمرار على أن جوادًا أو مركبة قد مر هنا، وكانت هذه هي العلامات الوحيدة على الطِريق. إلا أنه في

بعض المواضع كانت آثار العناية الحذرة ملحوظة؛ ظهرت أكوام كاملة من الأغصان والأخشاب الصغيرة وكأنها تحمي المسافر من مستنقع أو وحل، لكن المسافرين، ومن بينهم أنطون بلا شك، حاولوا تجنبها قدر الإمكان، حتى إن جواد الأخير تجنبها بدقة غير عادية، وربما قد خمَّن بغريزته الغبية أن السير فوقها سيكون أسهل طريقة لكسر قدمه أو عنقه.

بمرور بعض الوقت إلتقى أنطون بقافلة طويلة من نساء يرتدين أوشحة بيضاء وثيابًا فضفاضة جعلتهن يبدون كالأشباح. كن يتحركن واحدة تلو الأخرى على طول الطريق. حملت كل منهن عصا للسير وحقيبة ظهر من لحاء البتولا وزوجًا من الأحذية معلقًا على الكتفين، ومضين كلهن حافيات.

سأل أنطون عجوزًا منهن محدودبة، تكاد لا تحرك قدمها من فرط البرودة:

- هل أنتِ قادمة من المدينة يا جدة؟

- نعم، من المدينة.

- هل لا تزال المسافة طويلة حتى سوق الجياد بالمدينة؟

- لا أعرف، ومن يعرف؟ إننا لسنا من أهل المدينة.

- من أين إذن؟

- من بعيد يا عزيزي. نحن من مدينة كاشيرا، ونحن في طريقنا لفورونيوج في رحلة حج مقدسة.

سأل الفلاح بذهول:

- تسرن طوعًا؟

- نعم.

تنهد أنطون وحك رأسه، وأشاح بذراعه متمتمًا:

- آه!

سألت امرأة أخرى أصغر العجوز الأولى:

- عمَّ سأل؟

أجابت بإيجاز:

- سأل: هل المدينة بعيدة؟ (واصلت حديثها ملتفتة لامرأة ثالثة) وكم تبلغ المسافة؟ يا خالة إيرينا: كم تبلغ المسافة إلى المدينة؟ عشرة فرستات؟

أجابت إيرينا بتردد:

- ماذا تقولين؟ المسافة طويلة، طويلة. ربما خمسة فرستات.

لم ينتظر أنطون اندلاع الجدال الذي كان لا بد وأن يظهر بين النساء إثر سوء التفاهم السالف، ومضى بعيدًا بعد أن قطع فرستين سمع أغنية، وبعد ذلك بقليل رأى شخصين كانا يسيران على حافة الطريق، وبدا له أنهما كانا متوجهين صوب طرف المدينة. سرعان ما تبعهما. كانا شابين بدا عليهما السرور وخلو البال. واحد منهما بدا أكبر، كانت له لحية سوداء كالقطران، وكذلك كانت الحال مع عينيه وشعره، بينما كانت للآخر لحية شقراء بدأت تنبت لتوِّها. زيَّنت رأس كل منهما قلنسوة ذات حافة مربوط بها شريط من ثنية الجزء السفلي، وظهر ريش الطاووس متدليًا بشكل مستقيم من القمة. تألفت ثيابهما من معطفين قصيرين بيضاوين كالطباشير، جعلاهما بشكل عام يبدوان شديدي التأنق. كانا يرتديان أحذية مزيتة وشالين مغربيين تدليا على أكتافهما، كما كانا يمسكان بشفاههما غليونين قصيرين ذوي حواف نحاسية للتدخين. لم يستطع أنطون ألا يعجب بهما، وتوقف كلاهما، وصاح صاحب اللحية السوداء فيه مبينًا أسنانه البيضاء:

- مرحبًا أخي الفلاح، ألا تُقِل معك مسافرين؟ اقْلِنا معك وسنعطيك القليل من المال.

تصنَّع أنطون ضحكة بصعوبة قائلًا:

- لا أيها الأخوان، شكرًا لكما. الجواد يقل واحدًا فقط بصعوبة.

- واللّه لن يكلفك الأمر كثيرًا. سيفكا، كم ستدفع؟

أخرج سيفكا الغليون من فمه وبصق مسافة 3 ساجن وانفجر في الضحك.

- هل المدينة لا تزال بعيدة أيها الأخوان؟

أجاب ذو الشعر الأسود من دون تردد:

- هكذا هو الأمر؛ تظن أنها قريبة لكنك تكتشف أنها بعيدة.

- كفى تعقيدًا أيها الأخوان (وأشاح بيده) لقد أُنهك الجواد تمامًا.

- سأقول لك ماذا يجب أن تفعل. لا تجعل الجواد يُسرع. اسأل سيفكا، وهو سيقول لك.

- تبقت أمامك خمسة فرستات.

صاح ذو الشعر الأسود:

- ماذا تقول؟ خمسة؟ إنها لا تقل عن عشرة.

- بل خمسة.

- بل عشرة.

- خمسة.

- عشرة.

- أنت تكذب يا ماتيوشكا، ولا تفعل شيئًا سوى الإكثار من الجدال. الآن ستجد خلف الجبل قرية بوبرينو، وعلى مسافة 4 فرستات منها ستجد الطريق الرئيس.

أجابه ماتيوشكا بهدوء:

- يا لك من عاهرة لا ترى شيئًا. كنت أود لو أصادق رجلًا وإذا بعاهرة أمامي.

انفجر سيفكا في الضحك مجددًا. قال ماتيوشكا:

- من أين جاء بك اللّه يا رجل؟ هل أنت مسيحي؟

أجاب أنطون متنهدًا:

- أنا من تروسكينو. أتعرف قرية تروسكينو؟

- أعرفها بالطبع.

- ومن أين أنت يا أخي؟

أجاب ذو الشعر الأسود بجدية:

- من أين؟ من قرية دوبينوفكا التابعة لخفوروستينوفكا.

تمتم أنطون:

- يا له من مهرج عليه اللعنة!

واصل ماتيوشكا:

- ألا تصدقني؟ هذه هي الحقيقة، صدقني، وإذا أردت أن تعرف، فإننا تجولنا في القرى وحكنا القفاطين. أليس لديك تبغ أيها الفلاح؟ اللعنة!

- لا لا. وما هي وظيفتك؟

- وظيفتي هي الآتي: أصل إلى القرية وأرطم النوافذ بهراوة قائلًا: «إيه أيتها الأمهات والجدات وربات المنازل، ألا تريد إحداكن أن تحوك شيئًا؟»، وإذا لم أجد لدى إحداهن ما تود حياكته أطلب منهن أن يقدمن براجا ([18]) لكوندراشكا الجدع.

- أنتما حائكان إذن، أليس كذلك؟

- بلى، نحن حائكان شجاعان. سيفكا، لماذا غفوت؟ أصار لك رأس كلب حتى تود أن تنعم بغفوة؟ حسنًا تثاءب، هكذا أنت طوال الطريق وبالقرب من دكان الحداد.

وانخرط كلاهما في غناء أغنية ماجنة. ظل أنطون يستمع مندهشًا من وقاحة الشابين. عندما انتهت الأغنية وأشعل كل منهما غليونه، سأل وهو مستغرق في التفكير:

- وهل تدفعان ضرائب باهظة؟

أجابا بصوت واحد تقريبًا:

- لا ندفع شيئًا تقريبًا.

- أما نحن يا أخي فنعيش أحرارًا؛ لا نخدم أحدًا.

هنا وضع ماتيوشكا راحة يده البدينة على وجنته اليمنى وأنشد بنغمات موسيقية رائقة:

«- لماذا؟ لماذا أيها الصبي

- هربت من وطنك؟

- أنت لم تستمع لصوت أحد

- عدا قلبك.»

سرعان ما وصل المسافرون الثلاثة إلى كوخ مرتفع، تظلله شجرة تنوب خريفية وأعشاش طيور، موجود على حافة الطريق عند منعطف الطريق الريفي. قال ماتيوشكا لأنطون:

- كنا نمزح ونمزح فلم نشعر بأننا قطعنا أربعين فرسخًا. بدت لنا مسافة بسيطة، ولكن ترجل الآن، حان وقت الراحة. انظر، أمامنا صيدلية حكومية.

- لا، شكرًا أيها الأخوان. (وأضاف وهو ينظر من حوله ويحك رأسه) شكرًا حقًّا.

- كفى تظاهرًا أيها المسافر، دعنا نمضي ونأتي بزجاجة فودكا ربع لتر ([19]).

- لا، ليس لديكما ما تفعلانه، بينما أنا ذاهب إلى المدينة.

وتنهد أنطون.

- ولكن لا يزال هناك وقت، وستصل في الوقت المناسب.

- ليس لديَّ مال.

- إنها مشكلة، ولكن يمكنك أن تذهب وترهن شيئًا ما وعندما تعود تدفع الرهن وتأخذه.

كان من الواضح أن فلاحنا تردد بشدة، وأخيرًا استجمع شجاعته وقال بحسم:

- لن أمضي معكما فعلًا.

- أتخاف أن تخزي حلقك أم أنك لا تشرب أم ماذا؟

- من ناحية الشرب فأنا أشرب، لكني لن أمضي معكما.

- اللعنة، اشرب أيها الفلاح نخب هذا العالم، اشرب نخبه.

قال أنطون وهو يحرك زمام جواده الأرقط:

- الرب معكما.

صاح الشابان من خلفه:

- شيطان يأخذك! يا للوقاحة! عسى أن تسقط من على جوادك أيها الطويل.

لكن أنطون لم يسمع شيئًا، وكان قد صار خلف الجبل منذ فترة طويلة. في هذه الأثناء بدا أن الطقس قد قارب على الاعتدال؛ انجلت السماء الكالحة، ولاح ذلك بوضوح في الناحية اليمنى على الطريق المؤدي إلى قرية بابورينو. فجأة لمع المنزل الفخم الأبيض والكنيسة الموجودان على الجبل وسط الأشجار الداكنة والأكواخ التي لا يزال ظل كثيف يغطيها، كما لمعت البحيرة الموجودة خلفهما بدورها، وبمرور كل دقيقة كانت أشياء أخرى جديدة تنجلي وسط الضباب؛ تارة تلوح للأبصار هذه الطاحونة الهوائية التي تدور أجنحتها بسرعة، وتارة قطعة أرض مليئة بشتلات الحبوب التي تبدو وكأنها تأججت للحظة. في الحقيقة كانت سلاسل السحب الرمادية على اليسار لا تزال تتضفر، وفي بعض المواضع كان يحدث اندماج بين خط مائل من الأمطار الغزيرة من السماء المضببة وبين الأفق البعيد، ولكن هذا المنظر بدأ ينجلي تدريجيًّا. وسط هذا الضباب انجلى قوس قزح منقط بصورة أوضح، وقد شغل نصف السماء، واخترق شعاع الشمس كتلة السحب ولاح وسطها، وسقط على الأخاديد المليئة بالماء، وسرعان ما أنار الضوء الأبيض لشمس الخريف المكان كله. في الوقت ذاته بدا الطريق نفسه وكأنه استنار قليلًا. كلما ازداد الطريق قربًا من المدينة دبت فيه بوادر الحياة. في كثير من الأحيان بدأت تظهر العربات الملفوفة بالأغصان والمليئة بالطحين والجاودار والخيار والقدور وأغراض منزلية أخرى متنوعة. في بعض الأماكن كانت تظهر فلاحة هنا أو هناك تسحب بقرة مريضة ناحلة ذات ضرع جاف، والتي ربما كانت في

طريقها للبيع لمحبي القطط من أجل الحصول على جلودها، مكافأة على خدمتها الطويلة! بين الحين والآخر كانت الأغاني تعلو من العربات المليئة بالفلاحين والفلاحات، السائرة على الطريق الريفي. أشارت القبعات الأنيقة المزينة والقفاطين وأحذية الرجال طويلة العنق، وأوشحة الرأس القرمزية على رؤوس النساء، إلى وجود سوق في المدينة. بمرور فرستين آخرين رأى أنطون سلسلة طويلة لا نهائية من ظهور الجياد المغطاة بأغطية لبادية، وفي الواجهة جلس رجل عجوز ذو شعر رمادي وكتفين محنيتين، منهكًا، يحرك بجهد شاق عربة، ورفرفت بجانبه في الهواء حشائش مورقة على عصا معلقة على عارضة العربة، وبرزت من هذا الجسم الذي يبدو كاللحاء بطريقة ما عدة أرجل داكنة سوداء، وظهر بينها رأس ذو شعر مجعد أشعث، ويمسك الفم في هذا الرأس بغليون ذي حافة نحاسية. تناهت من العربات أصوات حوار بلغة غريبة فجة. ربطوا في الجزء الخلفي من العربة عشرات الخيول العنيدة بالحبال، وقد دُوِّنت العلامات على جوانب الجياد. باختصار، كان الباعة الغجر في كل مكان. بعد ذلك ظهر متسول أعمى قد اتكأ بإحدى يديه على عصا كثيرة العقد، وبالأخرى على كتف صبي نحيل، رث الثياب، كان يسحب قدميه المريضتين المنهكتين من قلب الوحل. كان من الواضح أن كليهما قد هرع إلى السوق أملًا في نيل غنيمة مربحة.

أخيرًا لمعت من بعيد قباب الكنائس وومضت الأسطح والبنايات، ولاح الجبل كله وسط الأفق وعلى طول المنحدر الذي امتدت المدينة عليه. تلألأ الدير على الضفة الرملية للنهر الواسع المتاخم للجبل، وكانت المعدية المُحمَّلة بالمؤن تقطع مياه النهر بهدوء، وبدت على الضفة كتلة سوداء من جمع كبير من الناس والعربات والجياد، وتناهى الضجيج من بعيد.

لسبب ما دق قلب أنطون بقوة عندما وصل إلى البوابة. للمرة الأولى شعر أنه في أرض غريبة، ووجد نفسه يفكر تلقائيًّا في زوجته وأطفاله أدى ذلك إلى أن خطر على باله نيكيتا فيدوريتش والنصيب المُر الذي ينتظر أسرته في حالة عدم نجاحه في بيع الجواد، ثم تذكر لقاءه بالطحان سرعان ما هبط من على ظهر جواده الأرقط، واقترب من الفلاح الذي كان يبيع أطر العربات، وسأله فجأة عن أقصر طريق إلى مكان بيع الخيول. بعد أن أجابه الفلاح دخل أنطون من البوابة، وسرعان ما ضاع وسط هذه الحشود، كحبة وقعت بين حجرَي الرحى، وسرعان ما تلاشى هو وجواده الواهن وسط ضجيج الجموع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

-4-

السوق

تنتمي المدينة الصغيرة التي يُقام فيها السوق إلى أكثر مدن المقاطعة ضآلة من حيث أهميتها. إذا نظر إليها المرء في أحد الأوقات العادية يستحيل عليه أن يفكر حتى في أنه يمكن أن يزورها لأي غرض، بل تبدو له بالأحرى موجودة على الطريق كوسيلة لبلوغ مكان آخر أبعد؛ فأينما ينظر فيها المرء يجد العجلات والقطران وعرائش المركبات ودكاكين الحدادة؛ إنها تبدو كمحطة للتوقف لإنجاز عمل سريع لا أكثر، مثل تشحيم العجلات، لتعود إلى طريقك مجددًا. لكن في الفترة التي يُقام فيها السوق، خاصة في فصل الخريف، تتسم المدينة بالحيوية والتنوع، حتى يصعب على المرء أن يتعرف عليها. لا عجب إذن من أن يحضر إليها عدد ضخم من الفلاحين الموجودين في الحي، ومعهم أكوام من الفطر وعملات الخمسة كوبيكات والجاودار والحنطة السوداء والدقيق والتبن، ويأتي إليها أيضًا التجار المحليون والسماسرة البرجوازيون وأصحاب المصانع الصغيرة، ويتوافد مختلف أنواع الناس إليها إذن؛ البعض من أجل الربح، والبعض من أجل العمل، والبعض من أجل التسكع والتحديق في الحافظات المملوءة بالمال. إلا أنه يلزم أن نقول إنه بصورة عامة هناك ما يستحق النظر إليه، وما يمكن شراؤه من معرض الخريف. يا لعدد السقائف والخيام والأبنية والسرادق، ليس فقط في الميدان، ولكن حتى بامتداد الأزقة والشوارع الضيقة على طول المنحدر الجبلي وصولًا إلى ضفة النهر! ما السلع والبضائع التي يمكن ألا تتوفر وسط كل ذلك؟ هنا توجد مجموعات مبرقشة من نباتات النينوفر الأصفر والقدور الصغيرة والملاعق المصنوعة من القيقب وشمندر البتولا وأكواب الزيزفون المذهبة من مقاطعة سوزدالسكي والأوعية والأصص، وأي أصص هي؛ أصص مصقولة من أماكن قرب نهر كولومينكا! هنا أكوام كاملة من القرون والمكسرات والحلوى والعسل الأسود وكعك الزنجبيل المزينة بأوراق ذهبية... هنا تجد العين أمامها كل أنواع نسيج الموصلين بخطوطها المتموجة والكعوب والأقمشة الكتانية. كم من الشالات الرمادية والصفراء والقرمزية ذات الأصباغ ترفرف في الهواء! كم من رايات من ألكسندروفكا وأقمشة موسكوفية وأقراص متلألئة! كم من سلع من كوستروما: أزرار وأكمام وأقراط قصديرية ورقائق معدنية مكسوة بمادة الميكا! وكأن كل شيء قد فاض عن العالم قد أتى إلى هنا.

انظروا كم من الناس يتحركون ويتدافعون وسط كل ذلك! يا له من زحام واكتظاظ! هؤلاء يتحركون في هذا الاتجاه، وأولئك يتحركون في ذلك الاتجاه.

صياح وضجيج من مختلف أنواع الأصوات والهتافات، وصلصلة الحديد وعواء وثغاء وخشخشة وصهيل وتصفيق... كل هذا ينصهر داخل جلبة واحدة تضم بين طياتها كل هذا التنافر، ولا يمكنك أن تلتقط من هذه الجلبة سوى أحاديث متجزئة ومتفرقة. يمكنك أن تسمع امرأة برجوازية سمينة ترتدي سترة من نسيج أسيوي من فرو الأرانب: «أنتم تسحقوني يا سادة. أنتم تسحقوني يا أعزائي». كما يمكنك أن تسمع أحدهم يقول: «اتركاه أيها الوالدان، أيها اللعين، فيم تحشر نفسك!»، وخلف هذا الصوت مباشرة يتعالى صوت جهير عميق: «لماذا تتكبر هكذا؟ حسنًا، حسنًا، لا تدفع بقوة، وإلا دفعتك أنا بشدة». «آه منك يا ناتف الريش»، ولكن هذا الصوت البرجوازي يُحجَب إثر تعالي حشرجة تاجرة: «من صنع يدي وحياة عيني، تعالوا ذوقوا الكعك، الكعك يا ناس، من صنع يدي». تعالى من خلفها صوت يقول: «البصل، البصل»، و«جواد طيب، فليقطع اللّه خبري من هذه الدنيا لو كنت قد سرقته!». وهذا أحدهم يصيح في بعض الغجر: «تعالوا لنتفاوض». «ماذا تحبون أن تشتروا؟ أمامكم قماش قطني مدبوغ، ونسيج قطني رقيق وننكين وقماش كتاني، اشتروا من عندنا». ويتصاعد صوت من إحدى النواحي: «قاربت الشمس على الغروب، وحقيبتي فارغة! لم أشترِ شيئًا». «إيفان تروفيميتش، إيفان تروفيميتش، أين تُباع الأمشاط؟ آه، آه من الزحام، إيفان تروفيميتش، لا تتخلف». وها هو حشد من الفتيات البائعات قد اندفعن بكل قوتهن صوب أجير طويل القامة يرتدي صدرية بالية قائلات: «من هنا، من هنا يا آنا أندرييفنا. لا تخشي شيئًا، لا تتأخري يا مارفا فاسيليفنا. ليست المدينة سوى غرفة كبيرة؛ فكم من الوقت يمكن أن يستغرقه المرء حتى يضل طريقه فيها!». «التوت البري، التوت يا ناس». «عذرًا، بحق المسيح فلتنظر بنفسك إلى الأمر». «الأسود سيئ». «أي أسود؟ أين هو الأسود؟ أين؟ إنه تبن طازج تمامًا تفوح منه رائحة الطزاجة!». «سبيريدونيتش، يا سبيريدونيتش، فلتشترِ من هذه الفتاة تلك القطط التي تموء. إنها تمزق روحي». غطت أصوات الأكورديونات والأغنيات الجريئة على كل الأصوات. «سيفكا، يا سيفكا، فلتتصرف مع هذه التاجرة، إنها تتمسك بالسعر بعناد». «ادفع من أمامك بمزيد من القوة يا ميتيوخا، لا تخجل». وسرعان ما تعالى في السوق كله صوت امرأة برجوازية ترتدي سترة من نسيج أسيوي من فرو الأرانب: «آه، أنتم تسحقونني يا سادة، تسحقونني يا أعزائي». «انظر، الدمية اللعينة تعوي. حسنًا يا سيفكا، دعنا نضغط أكثر لنسمع المزيد منها». «عليها اللعنة، أتعرف يا ماتيوشكا؟ دعنا نذهب يا أخي إلى مكان بيع الجياد وسنجد هناك ما يبهجنا». «لنمضِ إلى نصيبنا يا سيفكا، لنمضِ، آه، توقف، يبدو أن ثمة شجارًا، تعالَ هنا». يقف رجل أشقر نحيل يصر بأسنانه أمام عجوز أشيب يعلق أزرة زينة وقفازات وأوشحة. صاح ماتيوشكا:

- مرحبًا أيها العم، لماذا تبتسم؟ أم أنك سعيد بأنك صرت أصلع تمامًا؟

تعالى صوت من وسط الحشد المتحرك:

- ماذا لديك؟ ماذا؟

وقال عجوز:

- أيها الإخوة، إنه غشاش لعين، يتظاهر منذ الصباح الباكر بأنه يريد شراء وشاح، ويظل يفاوض ويفاوض في السعر من أجل التسلية وحسب، ولا يشتري شيئًا. آه!

ويقول أمين شرطة بولندي الأصل، أعور، تقدم للأمام ودفع المتشاجرين:

- أيها السادة، أيها السادة، كفاكم، كفاكم، كفاكم وإلا عرف القادة ما يحدث لا سمح اللّه، كفى، هيا انصرفوا، هناك (ويشير إلى السجن) ستجدون الخبز مجانيًّا، كفى أيها السادة.

يقول ماتيوشكا وهو يتحرك مبتعدًا:

- شياطين حقًّا، لولا الجبن لأصابوا بعضهم بعضًا قليلًا. ملاعين، هيا يا أخي سيميون إلى مكان بيع الجياد. لقد أوشكت الشمس على الغروب.

يُشكِّل ميدان الجياد المركز الرئيس للسوق. هناك لن تجد سخافات ولا لوحات شعبية ولا مشغولات حريرية ولا صناديق مملوءة بالأمشاط وأزرار الأكمام والمرايا، ولن تلتقي بمشترين غير مسالمين، ولا بفلاحات بصحبة عشاقهن المستغرقين في التفكير، كما يندر أن تلتقي هناك بفتيات ذوات شعر أحمر، ممتلئات، يزين جباههن بالخرز الزجاجي. هنا يتزاحم الناس على جانبي المرج العريض، وتموج أغلب هذه الكتلة من الناس بالصخب والحيوية والصياح والرغبة، سواء من يتجول منهم بالمكان، أو من أنهى جولته بالفعل. يمتلئ أحد جوانب المكان بعربات محملة بالتبن والقطران والخشب والعجلات، كما يتاجرون هناك أيضًا في البقر وجميع أنواع الماشية. يمتلئ الجانب الآخر بالحانات والمطاعم وجميع أنواع الأطعمة. هنا حلقات كثيفة من لاعبي سفايكا وأورليانكا ([20])، ويضجون بالأغاني، ويمتلئ المكان بالأوغاد والبرجوازيين والغجر. هنا وهناك تجد الفرسان يجربون الجياد أو يتسابقون بها على الطرقات وقد ربطوها بالعربات الخفيفة. هنا وهناك تظهر مجموعات من محبي الخيول والباعة والمشترين.

لم يكن ماتيوشكا الحائك وسيفكا رفيقه قد نجحا في شق طريقهما بعد عبر هذا الحشد الذي يشكل سياجًا حول الساحة حتى صاح الأول بعلو صوته:

- سيفكا، انظر هناك، أليس هذا هو الفلاح الذي إلتقيناه في الطريق؟ هو بعينه، وها هو جواده الأرقط. يبدو أنه لم يبعه بعد. آه! (وواصل حديثه ناظرًا إلى أنطون) ما اسمك أيها الطيب؟ ألا تريد أن نتعارف؟ حسنًا، فليسامحك اللّه.

قال أنطون متوجهًا صوب الحائك ومعه فلاحان آخران:

- مرحبًا أيها الأخوان.

كانا صديقا أنطون الجديدان رجلين قصيرين وممتلئين وضاربين إلى الحمرة، كل منهما يشبه الآخر بشدة. لكليهما لحية حمراء مدببة وعينان حمراوان ماكرتان، وكلاهما ارتدى سترة زرقاء مخرمة، وحزامًا مربوطًا حول الخصر، يتدلى منه صندوق علاجات الجياد، كما ارتدى كل منهما قبعة سوداء من جلد الغنم، وحذاء طويل العنق.

قال ماتيوشكا ساخرًا:

- ما لك تبدو عابسًا كفأر على سير الجواد؟ ها؟

أجاب أنطون بحزن، ناظرًا بعيدًا بشرود:

- وما المبهج هنا؟

- إيه؟ ألا يوجد مال كافٍ هنا؟ إنسان في المدينة من دون مال يبدو كما لو أنه سارق نفسه! للأسف يا أخي لقد أنفقنا كل ما لدينا عونك يا إلهي ولو بألف روبل أو أي مبلغ، ولو حتى لشراء سترة شتوية لقد تلاشى المال تمامًا وكأن ثورًا ابتلعه.

تعالى صخب وسط الجمع. في هذا الوقت اقترب فلاحان من أنطون، وقد تناثر الطحين على قبعتهما وسترتهما؛ الأمر الذي أشار بوضوح إلى حقيقة أنهما طحانان. قال الأكبر منهما:

- اسمع يا أخي، قل كلمتك الأخيرة: أستبيع جوادك هذا أم لا؟

تغامز الرجلان الضاربان إلى الحمرة، وسحبا أنطون بهدوء إلى الخلف قليلًا وهمسا له:

- لا تبِع أيها الفلاح، إنهما يريدان أن يغشاك. لا تبِع.

أجاب أنطون الطحان:

- راعِ اللّه، فلتراعِ اللّه، وحق المسيح راعِ ضميرك، لماذا تلف وتدور كالمخمور؟ أهذا سعر تشتري به جوادًا كهذا؟

غضب الطحان من حديث أنطون وقال:

- اتركه يا عمي كوندرات، أقول لك دعه، لقد تملك الشيطان قلبه. انظر كيف يعاند منذ خمس ساعات بالرغم من أن الجواد لا يستحق كل هذا العناد. دعنا نمضي ونشتري جوادًا آخر. الجياد هنا كثيرة.

أجاب الضاربان إلى الحمرة في وقت واحد:

- طبعًا، لقد أوشكت الشمس على الغروب، اذهبا لتجدا جوادًا آخر وسنشتري نحن هذا.

بدا على الطحان العجوز الحزن على عدم شرائه الجواد الأرقط، فدار حوله دورة أخيرة، ثم تحسس ساقيه ولمس عُرفه، وهز رأسه وذهب بعيدًا.

قال واحد من الضاربين إلى الحمرة:

- انظر كم هما حاذقان! أرادا شراءه بـ35 روبلًا، أتبيعهما هذا الجواد بـ35 روبلًا؟ إن سبعين روبلًا لا تكفي لمثل هذا الجواد.

صاح ماتيوشكا مجددًا:

- إيه أيها الفلاح، دعني أشتري جوادك، لا تحزن. هل أحزناك؟ كم طلبت؟ قل لي كم تريد وسأعطيك. داوني بالخمر وسأعطيك ثمن جوادك فور أن أسكر.

قال أنطون بغضب متقدمًا خطوة للأمام:

- ماذا تريدان مني؟ ها؟

وبان بوضوح أن المسكين قد فقد أعصابه تمامًا، وهو في انتظار فرصة للتنفيس عن غضبه في شخص ما ليس إلا.

تظاهر سيفكا وماتيوشكا بالخوف وتراجعا للخلف. حجبهما الحشد الذي كان هدفًا لسخرية ماتيوشكا، وسرعان ما انفجر كلاهما في نوبة ضحك طويلة صاخبة. شجع ذلك ماتيوشكا على أن يمد رأسه الأسود المجعد ويصيح بأعلى صوت:

- هيييه! أنت أيها الفلاح، يا من يمكن لأي شخص أن يطرحك أرضًا بضربة واحدة، انظروا أيها الإخوة، هذا هو ناظر أرضنا، انظروا إلى وميض فرسه الأرقط، أحسنت صنعًا. انظروا إلى هذا الغراب الذي وصل إلى هنا. مهلًا مهلًا أيها المغفل، كف عن هز ذيلك، هيا انطلق، انطلق.

في هذا الوقت تبع أنطون رفيقيه الضاربين إلى الحمرة اللذين جراه رغمًا عن إرادته تقريبًا إلى الطرف الآخر للساحة. سرعان ما قفز صوبه ثلاثة من

الغجر.

- أهذا الجواد ملكك أيها الطيب؟

- نعم.

- أتبيعه؟

همس الضاربان إلى الحمرة مجددًا لأنطون:

- لا تبع. إنهم فقراء، والأمر كله لف ودوران.

أجاب أنطون بتردد قائلًا:

- أبيعه.

ونظر في هذه اللحظة إلى رفيقيه بقلق. حينها ركض أحد الغجر وكان صاحب جسد ممتلئ وقوي، يرتدي سروالًا فضفاضًا مهترئًا، وثوبًا أزرق طويلًا تملأه رقع كتانية، إلى الجواد الأرقط، وفتح شفتيه، ثم رفع سيقانه، واحدة تلو الأخرى، وأخذ يضرب جانبه بحذائه ضربات خفيفة كأنه يختبره اختبارًا أخيرًا، وقال لرفيقيه:

- جواد جيد. تعالا لنساومه أيها الأخوان. انظرا، سيقانه جيدة. ([21])

أجاباه:

- لكنه يبدو كما لو أنه عجوز. لنتأكد من كل شيء.

وأقدم ثلاثتهم على فحص الجواد. بطبيعة الحال لم يكن هناك بد من الضربات على جانب الجواد كإجراءات ضرورية في مثل هذه الحالة. سأل الغجري الأول:

- كم ثمنه؟

أجابه الرفيقان الضاربان إلى الحمرة بلا مبالاة، وكأنهما يقولان ذلك بدافع الإحسان:

- سبعون روبلًا.

وأمسكا بأنطون ونحياه جانبًا وأخذا يهمسان في أذنه.

ضحك الغجر. قال الأول:

- إنه يساوي أربعين، ولكن هذا الفلاح سوف يبيعه بنصف هذا المبلغ. ألديكما المال؟

-

أجاباه:

- نعم.

- حسنًا. (واصل حديثه وأبدى هيئة من لا يشعر بالرضا عن الجواد) حسنًا أيها الأخوان، وأنت أيها الطيب، أنت تطلب سعرًا مرتفعًا جدًّا. الجواد منهك جدًّا وعجوز. هذا ما يقوله الرفاق. (كشف الغجر عن أسنانه) انظر، الأسنان العلوية ناتئة إلى الأمام، وأنت تريد سبعين روبلًا! لا، قل لنا سعرًا ملائمًا. لقد صار علف الجواد أغلى اليوم يا أخي. قل لنا سعرًا مناسبًا.

سأل أنطون:

- ما السعر الملائم لكم؟

- لن نفاوضك طويلًا، ولكن قبل أن نحدد السعر علينا أن نرى طريقة سيره وعدوه، وإذا كانت جيدة نعطيك سعرًا طيبًا ولا نبخس حقه.

تنحى الضاربان إلى الحمرة بأنطون جانبًا قائلين:

- يا أخي، لا تسلِّم لهم. لن يشتروه صدقًا. لن يشتروه. سترهق الجواد بلا جدوى وستجعل من نفسك أضحوكة. نؤكد لك أنك ستجد مشتريًا غدًا. لدينا مشترٍ. لقد قدت الجواد بالفعل عدة مرات ولم يشتروا، ولن يشتروا الآن أيضًا. هؤلاء ليسوا من نوعية من يشترون حقًّا. لست أنت أول من يفحصون جواده.

- شكرًا أيها العزيزان على حديثكما الطيب واللطيف، ولكن كما تريان، الأمر من شأني أنا.

- لهذا السبب يجب أن تفكر في الأمر جيدًا. الأمر واضح.

- اللّه أعلم بهم، ربما يشترون فعلًا. لقد جئت يا إخوة والهم فوق رأسي، وأود أن أتخلص من كل ذلك بأسرع ما يكون.

- راجع نفسك وإلا ضاع الأمر سدى.

جذب أنطون جواده الأرقط من زمامه، وقاده بصحبة الغجر صوب المطهى حيث البقعة التي اعتاد الجميع أن يطلقوا الجياد للعدو منها. مضى الضاربان إلى الحمرة خلفه. بعد أن مضى عشرين قدمًا إلتفتا سريعًا إلى الخلف، وأشارا لفلاحين آخرين ليتبعاهما، كانا واقفين على مبعدة من الجياد. تحرك الفلاحان على الفور من مكانهما وبدآ يطوفان المكان، ولم يلحظ أحد هذه المكيدة، وبالأكثر أنطون. كان من الواضح للجميع أنه في حالة معنوية سيئة للغاية، وأن اليوم ضاع منه بلا جدوى لم يبع الجواد، وهو نفسه صار منهكًا

تمامًا وجاع بشدة علاوة على ذلك، في كل مرة ما إن يظهر مشترٍ جديد ويبدو أن الأمر على وشك أن يتم، يتملكه شعور مقبض غامض، ويشعر بالأسف أكثر فأكثر على الجواد، بل إن شعوره بالأسف في هذه اللحظة وصل إلى حد أنه كان مستعدًّا للعودة إلى تروسكينو، وتحمل كل شيء سيصيبه من نيكيتا فيدوريتش مقابل ألا ينفصل عن جواده. لكن الآن، ولسبب ما، راود قلبه شعور مقبض بدرجة أسوأ، وسواء كان ذلك نذيرًا بشيء أو بآخر انسابت دموعه، واضطر أنطون المسكين إلى بذل جهود شديدة حتى لا يصرخ بصوت عالٍ.

قال واحد من الغجر عندما وصلوا إلى الموضع المراد:

- لقد سَرق هذا الجواد. فليُمتني اللّٰه لو لم يكن قد سرقه!

وقف بضعة أشخاص هناك حول الجواد، ومن بينهم اللذان أشار إليهما الرجلان الضاربان إلى الحمرة. قال الغجري الأول لأنطون:

- حسنًا يا أخي، امتطِ الجواد. دعنا نرى هل سيعدو الجواد بك أم لا. امتطِه.

اقترب أنطون ببطء من جواده الأرقط، واستند بمرفقيه على ظهر الجواد ثم دلَّى ساقيه الطويلتين الخرقاوين في الهواء وبدأ يحاول اعتلاء ظهره، وبعد جهود عديدة من جانبه، وضحك وسخرية من جانب المحيطين به، استطاع أخيرًا أن يجلس على ظهره ويجذب الزمام. أما الحشد الذي تألف في الأساس من الباعة، فقد اقترب وأحاط بالفلاح الفارس؛ بعضهم في صمت، والبعض أدلى بملاحظات مختلفة. ولم تكن هناك من ضمن هذه الملاحظات واحدة لا تعارض الأخرى؛ فهذا يؤكد أن جانبي الجواد مترهلان، وآخر يؤكد أن الجواد طيب، وثالث راهن على أنه قوي، بينما أكد رابع أن الجواد الأرقط لا يقل عمره عن مائة عام، إلخ لم يكن أي من هذه الآراء بالطبع عزيزًا على صاحبه، بل إنه يحدث كثيرًا أن من أكد رأيًا تجده قد أدلى برأي مناقض له بمرور دقيقة وربما أقل.

صاحت عدة أصوات: «هيا انطلق به»، وتنحى الحشد جانبًا.

لكن الجواد الأرقط المنهك والجائع والمُعذَّب رفض هذه المرة الانصياع لضرب وحث سيده ليتمم البلايا التي سقطت على رأسه، وثبَّت قدميه الأماميتين في الأرض، وأخفض رأسه بحدة رافضًا أن يتزحزح من مكانه.

تعالت الأصوات من كل مكان:

- الجواد معيوب. لا، آه، انظروا، يا للشيطان، لقد أُنهِك الجواد. دعوه يلتقط أنفاسه، دعوه.

في هذه الأثناء بذل أنطون كل جهوده ليشحذ همة الجواد، فيتقدم تارة إلى عنقه، وتارة يتراجع إلى ذيله، وتارة يهمز جانبيه بقدميه، ويهز اللجام بذراعيه، لكن شيئًا لم يُجدِ نفعًا، ولم يتحرك الجواد الأرقط.

قال الغجر:

- إيه! إيه! يبدو أن الجواد ثمل، ولا يمضي إلا بالسوط.

ضاعف أنطون جهوده، وتصبب العرق من على جبهته. تمتم متخبطًا بالجواد كالمجانين:

- حسنًا، حسنًا، هيا يا صديقي، هيا أيها الأحمق، آه! يا لك من حيوان! إيه آه!

- كفاك يا أخي. يا رفاق، ألا اقتدتموه بأنفسكم؟

- لا، ولماذا نقوده؟ دعوه يتوقف ويمضي بنفسه، ولكن دعوه يلتقط أنفاسه.

قال واحد من الواقفين من دون إبداء أي أسباب، وقد اندفع صوب الجواد، وضربه بقوة في بطنه حتى إن أنطون ذاته أوشك على أن يسقط من على ظهره:

- هل سيظل هكذا طويلًا؟

قهقه الحاضرون بينما رفس الجواد وصهل واندفع يعدو في المكان. تعالت الأصوات من كل مكان:

- انطلق انطلق، هيا، هيا، شي، شي.

تملكت الحماسة أحد الحاضرين حتى خلع سترته وأخذ يلوِّح بها كالمجنون في الهواء وهو يركض مطاردًا الجواد.

قال أحد الغجر متوجهًا صوب الجمع:

- لقد انطلق مباشرةً، حوافره جيدة، حسنًا حسنًا.

- فعلًا يعدو جيدًا.

أجابوا بصوت واحد، متابعين الجواد بنظراتهم، صائحين في أنطون:

- هيا، قفزته رائعة، دعه ينطلق بكل قوته، دعه، لنرى ماذا سيفعل.

بدا على الضاربين إلى الحمرة وكأنهما كانا في انتظار أن يبتعد أنطون، وما إن ابتعد حتى اقتربا من الفلاحين وتحدثا معهما:

عندما عاد أنطون كانا قد عادا إلى موضعهما الأول، وعاد رفيقاهما بجواديهما إلى الغجر. قال الغجِري الأول:

- ولكن سبعين روبلًا يا أخي مبلغ كبير، بل إنه مستحيل. فلتأخذ أربعين. إذا وافقت فليكن حسنًا، وإذا لم توافق فهذا شأنك. ما ردك؟ لن نتفاوض طويلًا.

نظر أنطون بتردد إلى الرجلين الضاربين إلى الحمرة، فهزا رأسيهما أمامه بعلامة الرفض. قال أنطون:

- لا، مستحيل. المبلغ قليل.

- يا إخوة، ما رأيكم؟ أتأخذون الجواد أم لا؟

تحدث الضاربان إلى الحمرة حينها قائلين:

- تعالَ معنا وسنؤمِّن لك جوادك وستشكرنا. إنك تقاتل معه، وستجعله ينهار، ولن تخرج منه بشيء. انظر، انظر كيف يثني ساقيه، تعالَ معنا وستنظر جيادنا؛ إنها جياد قوية. مع جيادنا لن يخسر جوادك وسيكون بخير.

قاطعهما أحد الفلاحين الواقفين بالقرب منهما قائلًا:

- لماذا تتطفلان عليه؟ ماذا تريدان منه؟ أتريدان أن تقصياه بعيدًا؟ يا للصفاقة! انعدم الضمير. انظر، أنت تحاول أن تبيع وهما يحاولان التطفل عليك. إنه الحسد، أليس كذلك؟ الحق إنها صفاقة.

- اصمت، شيطان يأخذك، إذا أردت أن تبيع بِع، فماذا تريد؟ انتفخت عيناك وكأنك ابتلعت خمسة، واختنقت في أثناء السادس. (وقالا لأنطون) بِع مقابل أربعين إن شئت، ولا ترهق نفسك، أهذا ما تريد؟

- لا، لن أبيع بأربعين.

أجاب الغجر:

- كما تشاء، إنه جوادك، ولكن اسمع كلمتنا الأخيرة. سندفع أربعين بالإضافة إلى طعامك وأجرتك، فما رأيك؟

- وماذا أفعل بالطعام والأجرة؟ أهما عفريت سيحقق لي آمالي؟

- سنزيد لجامًا على كل ذلك.

- لا حاجة لي إليه.

عاود الضاربان إلى الحمرة حديثهما:

- ما كل هذه الثرثرة يا رفاق؟! ألا ترون أنه لا يريد البيع؟ أهو الجواد الوحيد في السوق؟ انظروا كيف يؤرجح ذيله، وتريدون أن تدفعوا أربعين وحسب؟

يمكننا أن نعطيكم أرنبًا فخمًا مقابل الأربعين التي تودون دفعها. أتقولون إن عمره أربعة أعوام؟ كيف هذا بحق السماء؟

قال الغجري الأول:

- حسنًا، وما العمل معه؟ لنمضِ أيها الأخوان، إنه لا يريد البيع، وداعًا أيها الطيب.

- دعونا نذهب أيها الأخوان.

وسرعان ما اصطحب الضاربان إلى الحمرة أنطون إلى اتجاه آخر.

- تحدثنا معك ولم نعرف اسمك بعد. ما اسمك؟

- أنطون.

- آه! صهري يُدعى أنطون أيضًا. حسنًا، كما قلنا لك لا تبِع جوادك بهذا السعر. هل من المعقول أنك كنت على وشك أن تبيع جوادك للغجر؟ يُقال إن غدًا سوف يكون هناك مشترون كثيرون، وهناك سيد يمكنك أن تبيعه جوادك بثمانين روبلًا، أنا أعرفه جيدًا. بالاي، بالاي، أتعرف من أقصد؟

أومأ بالاي برأسه ونظر بارتياب إلى أنطون وغمز لصديقه.

أجاب الفلاح خافضًا رأسه بحزن:

- شكرًا يا رفيقان على أحاديثكما الطيبة، ولكن كما تريان لم يتم الأمر، فإلى أين أذهب الآن والليل قد أشرف؟

- أتسأل إلى أين تذهب؟ لا تحمل همًّا بشأن ذلك على الإطلاق. وهل تركناك؟ سوف يذهب أخي إلى القرية وسأبقى معك هنا، وإذا أردت فلنذهب معًا وسأريك أين سنقضي ليلتنا.

- ليس معي مال يا أخوان، يا للمصيبة! قلت سأبيع الجواد و...

- آه! يا للبلية! قليلون من لا يحملون مالًا، فالمرء ليس بوسعه أن يقضي ليلته في الحقل. سوف أذهب بك إلى صاحب نُزُل يمكنه أن يتركك تبيت عنده بالدين، ويمكنك في الصباح أن تترك شيئًا عنده كعهدة؛ معطفك القصير أو حزامك مثلًا، وعندما تبيع تعود إليه وتدفع المال وتأخذ ما تركته. هكذا نفعل دائمًا.

أجاب أنطون:

- عندما يجد المرء كلمة طيبة مثل كلماتكما يتيقن من رحمة الرب به، وغدًا أبيع الجواد بإذن اللّه.

- لا تقلق يا أخي أنطون. أقول لك لدينا مشترٍ، وهو سيد معتبر. لقد أحببناك جدًّا؛ فأنت فلاح طيب وبسيط، ونريد أن نخدمك. لقد قدَّر اللّٰه لقاءنا، وسوف ترضى.

غادر ثلاثتهم المكان. توجهوا إلى أحد الأزقة، وهناك ودَّع بالاي أنطون، وغمز مجددًا لرفيقه، ثم تلاشى وسط الجمع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

-5-
النُّزُل

قال أنطون في نفسه، تابعًا رفيقه بخطوات بطيئة متقلقلة: «يا لبليتي! يا لبليتي! عيشة كئيبة. مر اليوم منك على ما يبدو، وها قد حل المساء، والجواد لا يزال معك؛ فماذا سوف تفعل؟ لا، فليفعل اللّٰه ما يريده. لقد أخطأت أمام وجهه. آه، آه. في المنزل، في المنزل لديَّ شاي، وهم ينتظرونني بشوق. لا، لن ينتظروا. صحيح أني وجدت رجلًا طيبًا، ووعدني بمشترٍ جيد، ولكن هذا سيحدث غدًا، توجب عليَّ أن أقضي ليلتي في مكان غريب وسط غرباء، وليس لديَّ أي مال والحالة سيئة ولكن خوفي من أن يأتي الغد ومعه نصيبي المُر ولا أنجح في بيع الجواد مجددًا، ولا يحدث شيء سوى أن أجلب لنفسي مزيدًا من المشكلات، وأعود بها إلى منزلي. لن ينتظر نيكيتا حينها، وسيطردني مع ضوء النهار، وستكون كارثة، لا أخشى حلول الكارثة عليَّ، ولكن فاريوخا والطفلان، آه، آه، آه، يا لبليتي! عيشة كئيبة».

في هذه الأثناء أوشك المساء على الحلول، وغربت الشمس، وشحبت الحواف الذهبية للسحب في الأفق البعيد، مما أنبأ بحلول الشفق قريبًا جدًّا. لقد اكتنفت الظلال بالفعل قواعد الجبال والشواطئ الرملية المنبسطة والدير والجرف الرملي؛ وحده النهر الذي عكس الغيوم المستديرة وأدفأته ومضات الغروب الأخيرة حفر في الظلال شريطًا قرمزيًّا متلألئًا. هبَّت ريح خريفية باردة وهسهست في أخاديد الطريق. من حين لآخر كانت تُغيِّر وجهتها، وحينها تعالت من ناحية النهر صيحات فظة من الجمع المتزاحمين على الشاطئ في انتظار العبَّارة التي بدت كنقطة سوداء على سطح المياه الآخذة في الشحوب أكثر فأكثر، وقد تركت خلفها شريطًا متقدًا متلألئًا من الضوء. تلاشت ضجة السوق، وتناقصت أعداد الحشد في المدينة تدريجيًّا، وأسدلت الأبواب وأغلقت المتاجر، وتفرق الباعة والمشترون في جميع الاتجاهات، وساد الهدوء أكثر فأكثر الشوارع والميادين، وبين صفوف العربات والمركبات المتراصة الملفوفة بالحصير والمربوطة ليلًا. ازدادت درجة الهدوء في سفح الجبل بصورة ملحوظة، وتلاشت هناك تقريبًا كل معالم السوق. في بعض الأماكن كان المرء يصادف عربة تحمل قشًّا وصاحبه لم يبِعه بعد، ووجهًا ينم عن عدم الرضا يتألق في كل مرة يمر أحد بالقرب من صاحبه، أو عندما يمر بمجموعة من الفلاحين السكارى، والفلاحات المتشابكات بشدة واللاتي يتأرجحن في سيرهن على الجانبين، ويتمتمن بأغنية غير مترابطة.

وصل أنطون وصاحبه الضارب إلى الحمرة إلى سفح الجبل بالفعل، وتوجب عليهما أن يتوقفا عند أحد المنعطفات بسبب الزحام. ازداد اقترابهما من الحشد. عند أكثر المواضع انحدارًا كان هناك فلاح ثمل يبدو كالميت، رأسه أشيب ككلب الصيد، وظلت قدماه مرفوعتين، وملأت الدماء عنق العجوز وصار وجهه أزرق اللون. لم يكن الموجودون في المكان - وكانوا كثيرين - في حالة نوم، ومع ذلك لم يرفعوه من مكانه، والبعض مروا به واكتفوا بالقول: «لقد انتفخ وجهه»، أو حتى قالوا: «انظروا إلى أي مدى قد ثمل»، أما القطاع الأكبر من الذين شاهدوه لم يفعلوا شيئًا ولم يدلوا بأي ملاحظة، بل اكتفوا بالنظر إليه نظرة فضولية بليدة، وحكّوا مؤخرات رؤوسهم وهزوها كما لو أنهم يرثون لحال الفلاح البائس، لكن أحدًا لم يقدم له مساعدة، بل إن أحدًا لم يتحرك من مكانه كان أنطون بالطبع من الفئة الأخيرة لقد وقف يهز رأسه، وكان على وشك مناداة رفيقه، ولكن في هذه اللحظة تحديدًا خرج من الحشد رجل ممتلئ وأجعد الشعر، وقوي البنية، يرتدي قفطانًا أزرق، بسرور وهتاف، وأسرع ليحتضنه.

- آاه، أنطون! كيف حالك بحق السماء؟ هل صحتك بخير؟ لم أتوقع أن ألقاك هنا.

- مرحبًا يا ميتروخا، كيف حالك؟

قالها أنطون مندهشًا بعض الشيء من لقاء غير متوقع. تعانقا وتبادلا القبلات. أقلق هذا اللقاء الضارب إلى الحمرة بشدة؛ فاقترب بعصبية من أنطون، وسحبه هامسًا:

- حان الوقت للذهاب إلى النُّزُل، وإلا قد لا نجد مكانًا.

واصل ميتروخا حديثه:

- أي مزحة هذه؟ عام كامل من دون لقاء ونلتقي هنا! ولكن كيف حالك يا أنطون؟ وما أحوال معيشتك مع الصبية؟

- آه، الأفضل ألا تسألني، لا أظن أن هناك معيشة أسوأ من معيشتي. هي الأسوأ.

- هل نيكيتا اللعين يضايقك؟

أجاب أنطون بحزن:

- نعم، لقد جئت إلى هنا يا أخي لأبيع جوادي الأخير. أمرني بذلك، لا أعرف ماذا سوف يحدث، ولكن من المؤكد أن الخراب قد حل عليَّ.

- أف، أشعر بالأسف الشديد عليك يا أخي. أما أنا يا أخي فقد حققت قدرًا لا بأس به من النجاح في المصنع أعيش على بُعد 3 فرستات من هنا؛ في مصنع الأقمشة القطنية في الحقيقة، المالك طيب ولا يعيش حياة شريرة لكن قل لي يا أخي: كيف حال ستيجني وزوجته؟ إنه صهري.

- وما الذي يمكن أن يشكوا منه؟ الخبز متوفر لديهم، ويعيشون حياة طيبة بنعمة اللّه.

- يُقال إنه شيَّد كوخًا جديدًا، أهذا صحيح؟

- صحيح.

- وأين ستقضي ليلتك هنا؟

أجاب الثرثار الضارب إلى الحمرة:

- في نُزُل هناك.

واصل أنطون مشيرًا لصديقه الفلاح إلى الضارب إلى الحمرة:

- عسى أن يحفظه اللّه، لقد إلتقيتُ بإنسان طيب، وسيوفر لي مأوى الليلة.

قال الضارب إلى الحمرة:

- هيا يا أنطون، لنمضِ الآن حتى لا نتأخر، فربما يزدحم المكان بالجمع الآتي من السوق.

قال ميتروخا:

- حسنًا، سأعرج عليك غدًا في النُّزُل. بإذن اللّه سآتي، وسنشرب الشاي معًا ونذهب مبكرًا إلى السوق. سنتحدث حينها عن ذوينا ونتبادل الأخبار. كما أنا سعيد يا أخي أنطون برؤيتك حقًّا، إنها سعادة أن أرى واحدًا من أقربائي. قلبي يدق فرحًا لأن الفرصة أُتيحت لي أن ألتقي بواحد من أولاد بلدي. وداعًا يا أخي. سأذهب الآن إلى الساحة، وغدًا سأعرج عليك حتمًا.

- وداعًا يا ميتروخا. اعرج عليَّ غدًا.

- اتفقنا. اتفقنا.

عندما اختفى صديقه عند المنعطف سأل أنطون الضارب إلى الحمرة:

- حسنًا يا أخي، إلى أين نذهب الآن؟

- دعنا ننزل، وسنسير هناك على طول الساحل حتى نصل إلى دكان الحداد.

- أِهو بعيد؟

- أترى التقاطع الموجود هناك؟

- أراه.

- لا بأس إذن. النُّزُل هناك. إنه يقع هناك خلف دكان الحدادة.

فجأة تغيرت حركات وطريقة سير رفيق أنطون، بل وحتى وجهه. بدا كل شيء فيه الآن ينم عن الرضا، بل والانتصار؛ ضاقت عيناه الخبيثتان الرماديتان بسخرية، وحدقتا تارة في الفلاح وتارة في جواده الأرقط، وصار أكثر ثرثرة، ولكن لم تعد أحاديثه تكشف عن الاهتمام واللطف اللذين أبداهما سابقًا نحو أنطون. تمت الأمور كما قال الضارب إلى الحمرة بالضبط. سرعان ما وصلا إلى مكان العبور، وهناك صعدا الضفة الموحلة الزلقة، وخرجا إلى البقعة الخالية المحاطة من أحد الجوانب بمجموعة من دكاكين الحدادة القاتمة الكئيبة، وقد انحدرت في خط غير مستوٍ تكاد تصل إلى الماء تقريبًا.

بعد أن مرَّا بدكاكين الحدادة أشار الضارب إلى الحمرة في صمت لأنطون إلى كوخ مرتفع منتصب وحده على الطريق، مسدلة حوله ستائر طويلة. في الوقت الذي اقتربا فيه من الكوخ كان الليل قد عانق السماء تمامًا وأسدل ستره على المكان. لاح القمر من وراء الغيوم، وبدا مرحًا في السماء. استدار أنطون وألقى نظرة على المدينة؛ كل شيء قد هدأ هناك، ونادرًا جدًّا ما كانت تصل أصداء أغنية بعيدة أو حث مستمر من قِبل فلاح متأخر لجواده على الإسراع في ناحية ما، بعيدًا تمامًا عن النهر، تناهى صوت طرق على لوح مصبوب من حديد الزهر رأى أنطون النهر يتلاشى من أمام البصر بعد بضعة منحنيات في الظلام، والضباب الأبيض والسحب السوداء المحيطة بالأفق، يفصلان ضفافه شديدة الانحدار. توارى القمر وسادت عتمة عميقة لا يُسبر غورها. كان أنطون لا يكاد يتبين البوابة وهو في طريقه صوب الكوخ من شدة العتمة. الحديث الصاخب والنور الذي شكَّل شريطًا طويلًا قادمًا من النافذة هما ما دلَّا على وجود عدد من الناس في النُّزُل. قال الضارب إلى الحمرة:

- ها قد وصلنا. اترك جوادك عند البوابة. حسنًا، اتركه هنا تحت السقيفة ودعنا نتناول العشاء.

قال أنطون وهو يرمق بقلق ساحة النُّزُل والسقيفة:

- اسمع أيها الطيب. ألن تحدث مصيبة ([22])؟ ألن يعتدوا عليَّ؟ ألن يستولوا على الجواد؟ لقد سمعت أن الناس عندكم في المدينة طيبون لا يفعلون ذلك.

صاح الرجل رابتًا على كتف أنطون:

- ماذا تقول؟ يبدو أنك قروي ساذج، قروي تمامًا، نمت لحيتك ولم ينمُ عقلك بعد. هل اكتفى عقلك بهذه الدرجة؟ فلتحكم بنفسك: من الذي يمكنه أن يستولي على الجواد هنا؟ صاحب النُّزُل هنا، والبوابات تُغلق ليلًا. لسنا هنا في القرية كما هو الأمر عندكم. الحذر بالطبع واجب، ولكن انظر: لماذا يبقون على هذه الساحة أمام النُّزُل في رأيك؟

أجاب الفلاح مواصلًا التحديق في كل النواحي:

- يبدو الأمر كما تقول، ولكن يجب الحذر من كل شيء.

بدأ الضارب إلى الحمرة في التحول من الحديث بلهجة ساخرة إلى لهجة جادة:

- ماذا تقول؟ من هنا ضدك؟ يعلم الجميع أنك تقود جوادًا، ولست أخرق. كفى أيها الفلاح، كفى، هل أنت خائف حقًّا أم ماذا بك؟

- خائف كما لو أني سأقف بين يدي القدير.

- إذا كان الأمر كذلك اربط جوادك بالعمود هنا، ثم تعالَ ونم هنا، وسأستلقي بجوارك هنا. تعالَ الآن لنشرب كأسًا من النبيذ. أكاد أموت من أجل كأس. سنطرح القش وننام هنا ملء جفوننا، حسنًا؟

- حسنًا، ما دمت ستكون معي أيها الطيب.

- اتفقنا؟

- اتفقنا.

- اربطه بإحكام حتى لا يكون قادرًا على الإفلات.

- لا، لن يفلت.

- هيا بنا.

كان الكوخ الذي اقتاد الضارب إلى الحمرة أنطون إليه رحبًا؛ على الأقل هذا ما بدا للأخير في الإضاءة الخافتة للشموع الموقدة على الطاولة على شمعدان حديدي مُقوَّس. استند أحد طرفي الحاجز المُقسَّم إلى جزأين، إلى موقد ضخم متعدد الأرفف ومواضع الخبز، بينما عمل الآخر بمثابة داعم لألواح عريضة تدلت عليها قدمان حافيتان وجلود غنم. كان هناك أربعة أشخاص جالسون إلى الطاولة تحت الأيقونات الدينية المعلقة، يتناولون عشاءهم، وبالقرب منهم كانت المضيفة تضايفهم، وهي امرأة شعثاء ناعسة، ذات وجه مليء بالبثور. قال الضارب إلى الحمرة وهو يغلق الباب من خلفه:

- خبزًا وملحًا أيها الإخوة ([23])، (ثم إلى صاحبة المكان) مرحبًا.

قال أنطون بدوره وهو يُصلِّب أمام الأيقونات الدينية:

- خبزًا وملحًا.

رد الجالسون:

- شكرًا.

سألت زوجة صاحب النُّزُل بفجاجة:

- هل ستظل واقفًا أم ماذا؟

- أنا لا أتسكع في المكان، ولكن - كما ترين - رفيقي أحضرني إلى هنا. ولكن أين صاحب المكان؟

- من هناك؟

تناهى إليهم صوت من أعلى، وفي الوقت ذاته تحركت القدمان الطويلتان المدلاتان وبان جسد صاحب هاتين القدمين، وانقلب على ظهره. صاحت صاحبة النُّزُل بصوت قوي بعض الشيء:

- تقدم، انظر، لقد جاء بعض الزبائن.

تعالى صوت تثاؤب من السرير العلوي ([24])، وتمتم صاحب النُّزُل هابطًا من فوق الموقد: «أو أو أو!» ثم توقف صائحًا:

- مرحبًا، مرحبًا يا صاحب اللحية الحمراء.

قدَّم له الضارب إلى الحمرة أنطون، وقد أشار له بحركة خفية. صمت صاحب النُّزُل، وألقى بكلتا يديه خلف عنقه، وتمدد وتثاءب وواصل حديثه بكسل قائلًا:

- تأتي دائمًا في وقت متأخر. لقد نام الناس منذ فترة طويلة. هل هذا الفلاح قد أتى معك؟

- نعم، إنه معي.

- أهناك جواد؟

- نعم.

- أتريد بعض التبن؟ لديَّ تبن جيد.

أجاب أنطون ببراءة:

- لا، لست في حاجة إلى تبن. لقد جئت إلى المدينة لأبيع الجواد، وسوف أتركه هكذا أيها الرجل الطيب.

- كما تشاء. هل تريد عشاءً؟

- نعم.

- يا للبلية! لقد أرسلت صغيري إلى قرية زيميونكا، ولم يعد حتى الآن.

وهكذا كان صاحب النُّزُل يقول عند التحدث عن أي شيء وهو يهبط من مكانه. سأل الضارب إلى الحمرة ساهمًا:

- وكم سعر العشاء؟

- نحن نعرف أوضاع الناس، ولا نأخذ الكثير. سنأخذ 6 جريفنا مقابل الخبز.

- حسنًا. يا امرأة، أعدي الطعام سريعًا. أوشكت على التضور جوعًا.

- ماذا تريد؟ أعد حساء الشي (حساء ملفوف روسي). أتريده مخلوطًا بالبازلاء أم بقصب الطيب والبذور؟

- أي طعام يا سيد، ألا نجد لديكم بعض النبيذ؟

- لديَّ بقدر ما تريد. بكم تريد؟

- ما لك خفضت رأسك يا أنطون! يقولون أنه لديهم نبيذ، أتسمع؟ أقول لك لنشرب. غدًا سوف يكون يومًا مشحونًا. هات لنا يا سيد مقدار شتوف ([25]).

عندما خرج صاحب النُّزُل قضى الضارب إلى الحمرة بضع دقائق أخرى بالقرب من الموقد ثم انسل خارجًا من الباب. فعل ذلك بحذق، حتى إن أنطون لم يلحظ شيئًا. خلع معطفه القصير، وعلقه أمام الموقد ليجف، وصلى للرب ثم جلس إلى الطاولة في انتظار العشاء، وأخذ ينظر إلى الرفاق الجدد الجالسين من حوله. بعد برهة قصيرة نهض اثنان منهم، ورشما علامة الصليب أمام الأيقونات، ثم استلقيا على فراشين شغلا جدارًا كاملًا من الكوخ. رأى أنطون أن ثمة بعض الفلاحين ينامون هناك. واحد من الاثنين اللذين ظلا جالسين إلى الطاولة استرعى انتباه فلاحنا. كان ممتلئًا قوي البنية، ولديه لحية سوداء كبيرة وشعر دهني مستوٍ، تنسدل أيضًا خصل طويلة على جانبي الوجه المنتفخ المتورد، بحيث أضفت عليه مظهرًا طيبًا بدرجة غير عادية. كان هناك على الطاولة أمامه إناء ضخم من العصيدة وطبق خشبي يحتوي على لحم بقري مخلوط بالغضاريف وطبق مكرونة. انهمك في تناول كل ذلك، مقبلًا بالتناوب على هذا تارة، وعلى ذلك تارة أخرى، بالحمية ذاتها، حتى إن

قطرات العرق كانت تتساقط منه كحبات بازلاء ضخمة. كان أنطون أول من قطع هذا الصمت. سأله:

- من أين أنت؟

هز الفلاح رأسه وحدَّق فيه بعينيه اللامعتين، وابتلع قدرًا من العصيدة كان يمنعه عن الحديث، وقال:

- من بعيد. من روستوف.

- من ضيعة أحد السادة؟

- من ضيعة أحد النبلاء.

- ضيعة كبيرة؟

- نعم، كبيرة.

هنا وضعت صاحبة زوجة صاحب النُّزُل أمامه سلطانية مزودة بالبازلاء. أقبل الفلاح عليها بالشهية ذاتها، ولم يعد يجيب عن شيء من أسئلة أنطون. سرعان ما عاد الضارب إلى الحمرة مع مقدار شتوف من النبيذ، وجلس بجانب رفيقه، وأقبل كلاهما على العشاء. بعد قليل ظهر صاحب النُّزُل ذاته. سأل الفلاح الجالس بجوار القادم من مدينة ياروسلاف:

- هل ستستعد للرحيل أم ماذا؟

أجابه الفلاح وهو يشد حزامه حوله:

- نعم، لقد حان الوقت. يجب أن أصل إلى المنزل قبل الفجر.

رفع أنطون رأسه سريعًا ونظر إليه، وتنهد ثم عاود تناول طعامه. أتى صاحب النُّزُل بالحساب من على الرف واقترب بصحبة زوجته من الفلاح المغادر.

- تناولت حساء الشي، أليس كذلك؟

- صحيح.

- وعصيدة؟

- نعم.

- سكبت زبدًا؟

- سكبت.

قال صاحب النُّزُل بفظاظة، مطقطقًا عظامه:

- أربعون كوبيكًا.

سدد الفلاح حسابه، وصلى أمام الأيقونات الدينية، وانحنى أمام الجهات الأربع، ثم غادر الكوخ. في هذا الوقت نجح الياروسلافي في إفراغ سلطانية البازلاء تمامًا. نهض سريعًا من على الدكة، وتناول سترته المعلقة على العمود وبسطها بجانب صديقه النائم واستلقى هو الآخر. في اللحظة ذاتها تقريبًا ملأ الكوخ كله بشخيره القوي والمتواصل. زحفت زوجة صاحب النُّزُل إلى الموقد، ولم يتبقَّ أحد مستيقظًا في الكوخ سوى الضارب إلى الحمرة وأنطون وصاحب النُّزُل. قال الأول، منصتًا إلى ضجيج عربة الفلاح المغادر وهي تبتعد:

- يا صاحب النُّزُل، اجلس معنا يا أخي ولا تتكبر علينا. إن صديقي في حالة يأس شديدة؛ يأكل ولا يأكل، يشرب ولا يشرب، فماذا أنت فاعل معه؟

قال صاحب النُّزُل، مقتربًا من الطاولة:

- آه، قُل لي ما اسمك؟ بانتيل أم ماذا؟

- أنطون.

- هيا يا أخي أنطون. سوف أشرب. ما بك؟ كفى تمنعًا، هيا اشرب، النبيذ لديَّ رائع. خذ رشفة.

شرب أنطون. قال صاحب النُّزُل بصوت يشبه القرقرة وهو يمسح لحيته:

- ليس هذا ما أفكر فيه أيها الأخوان، البرودة قارسة.

صاح الضارب إلى الحمرة غامزًا لصاحب النُّزُل:

- اشرب ولا تخجل، اشرب كأسًا يا أخي، البرودة قارسة.

- شكرًا. هذا يكفي تمامًا.

- ماذا تقصد بـ«شكرًا»؟ اشرب، اشرب بقدر ما تستطيع، الأول فالثاني، والتالتة تابتة. اشرب بقدر ما تريد يا أخي. دعونا ننام هناك.

سأل أنطون، وقد بدأت عيناه تتوهجان:

- تحت السقيفة؟

- من المحتمل أن نفعل ذلك. صاحب النُّزُل طيب وسيعطيك تبنًا. اشرب يا أخي، اشرب من دون قلق. أتريد خبزًا؟

- حسنًا.

- حسنًا، ما دمنا أتينا بالنبيذ، فلا بد من الخبز. سآتي بقدر بسيط منه. هيا بنا، يا لك من ضعيف! تفكر طويلًا في أن...

إلتقط صاحب النُّزُل طرف خيط الحديث وقال:

- ما الذي يجعلك لا تشرب عندما يقدِّم لك رجل طيب الشراب؟ لن يُحدث ذلك أي شر يا أخي أنطون. يقول الطيبون: اشرب على الطاولة، ولا تشرب في ركن وحدك.

شرب أنطون كأسًا أخرى. قال بوهن في أثناء شرب كأسه الثالثة، والعرق يتصبب على وجهه وعنقه:

- أيها الأخوان، حان... حان الوقت... بحق المسيح حان الوقت للعودة إلى المنزل، فارفارا.. إيه.. فارفارا... أيها الإخوة.

أجاب الضارب إلى الحمرة وهو يسكب كأسًا أخرى:

- انتظر، اشرب هذه سلفًا، إنها كأسك الأخيرة حتى لا تشعر بأي برودة.

قال صاحب النُّزُل متثائبًا ومتمطعًا:

- اشربا بسرعة، لقد حان موعد نومي، لقد تجاوز الوقت منتصف الليل.

ازدرد أنطون الكأس، وفي اللحظة ذاتها تقريبًا تداعى على الدكة كالعقاب. سأل صاحب النُّزُل المستلقي الضارب إلى الحمرة الذي كان قد انحنى صوب أنطون بالفعل:

- هل نام؟

أجابه بعد أن انتصب مجددًا، ملوحًا بذراعه:

- ولو عزفت على رأسه لن يستيقظ.

ضحك كلاهما. اقترب الضارب إلى الحمرة من الطاولة، وشرب ما تبقى من شتوف الفودكا، وتناول قبعته وظل ينظر بالتناوب إلى النائمين، وبعد أن تيقن من أن جميعهم قد استغرقوا في النوم، أطفأ الشمعة وخرج من الكوخ بصحبة صاحبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-6-

الجواد الأرقط

كان الوقت قد قارب الفجر عندما استيقظ الياروسلافي فجأة إثر ضجيج في الكوخ. فتح عينيه، ورأى الطاولة مقلوبة، وأنطون يزحف على أربع تحتها، يرشم الصليب هامسًا:

- يا رب، يا رب النعمة والرحمة، فلتكن قوة الصليب معنا.

سأله الفلاح ناهضًا من فراشه وقد أخذ يربت على كتف أنطون:

- ماذا؟ ماذا أصابك يا أخي؟ لقد أخفتني. ظننت أنها الحمى، وأن كل شيء يرتج من حولي.

قال أنطون وجسده كله يرتج:

- يا رب النعمة، آه، لقد غادروا لتوِّهم. سأموت، انظر، أي نوم ثقيل غرقت فيه! لا أتذكر شيئًا، لا أتذكر شيئًا. كل ما أتذكره هو أنه كابوس مريع، كابوس مريع اكتنف قلبي. شكرًا يا عزيزي لأنك ساعدتني على النهوض. سأذهب، يا إلهي الرحيم، سأذهب لألقي نظرة على جوادي، فهو يستحق ذلك.

رشم أنطون علامة الصليب مجددًا، وخرج مسرعًا من الكوخ. جلس الفلاح على التبن وبدأ يلف لفافة الساق.

الضجة التي أثارها أنطون لم توقظ الياروسلافي صاحب الجسد الممتلئ وحسب، بل تعالى التثاؤب والتمدد والتأوه من كل المستلقين على الأرفف، بل إن عدة أقدام حافية تدلت فوق الموقد. تعالت فجأة في الساحة صيحة حادة، حتى إن جميع الأقدام ارتجفت مرة واحدة، وقفز الجميع على الأرض. في هذه اللحظة انفتح الباب على مصراعيه، ودخل أنطون الكوخ راكضًا كالمجنون. كان وجهه شاحبًا كالطباشير، أشعث الشعر، ويداه وساقاه ترتجف، وشفتاه تتحركان من دون أن يصدر صوت منه. وقف في منتصف الكوخ ينظر إليهم جميعًا بعينين مريعتين زائغتين. سألت زوجة صاحب النُّزُل وهي تمد رأسها بين الأرفف:

- ماذا هناك؟

وتحدث الرجال حول أنطون في وقت واحد قائلين: «ما بك؟» - «هل كان الفلاح الصغير مخمورًا أم ماذا؟» - «ما الأمر؟». وقال صاحب النُّزُل بفظاظة وهو يدفع الفلاح الواقف أمامه بعيدًا، ويمسك بأنطون من قميصه:

- لماذا تُكدِّر الجميع؟ تكلم، لماذا عيناك منتفختان هكذا؟

لم يستطع أنطون سوى أن يصيح قائلًا:

- سرقوه، سرقوا الجواد. يا إلهي، سرقوا جوادي الأرقط.

- يا للهول! انظروا ما حدث يا إخوة، يمكن أن تحل البلية في لحظة واحدة، أوه أوه أوه!

أسرع جميع من في الكوخ، ومن ضمنهم أنطون ومالك الكوخ، إلى الفناء. اندفع أنطون صوب المكان الذي ربط جواده إليه مساء الأمس، ولم يقل كلمة، بل أشار إليه بيد مرتعشة. كان المكان خاليًا، وليس على العمود سوى الحبل. تعالت الأصوات من كل مكان: «لقد أخذوا الجواد فعلًا» - «انظر، ها هو الحبل ممزق» - «لقد قطعوه بسكين»... إلخ.

أمسك أنطون رأسه بكلتا يديه وملأ الفناء كله بالبكاء. قال الفلاح المسكين بصوت مختنق:

- يا إخوة، ماذا فعلتم بي؟ إلى أين أذهب الآن؟ يا إخوة، أعيدوا لي جوادي إذا كانت نفوسكم لا تزال تحوي أقل قدر من الرحمة، لديَّ أطفال صغار، وسنضيع كلنا من دون الجواد يا إخوة، ألا تؤمنون بالمسيح؟

لا شيء يمكن أن يحدث بصورة مفاجئة وبسرعة مثل التحولات الداخلية التي تطرأ في نفوس البسطاء. تقريبًا كل الذين قابلوا بلية أنطون بالسخرية صاروا الآن يشاركونه شعوره بحيوية، بل وُجِد من بينهم أيضًا من هرعوا إلى صاحب النُّزُل بوجنات حمراء كرايات الزينة وأعين متلألئة وقبضات مضغوطة. كان الياروسلافي الممتلئ أكثر انفعالًا من الجميع. صاح مقتربًا من صاحب النُّزُل:

- إلام تنظر يا صاحب النُّزُل؟ أهذا ما يفعله الطيبون؟ هل من المعقول أن تُترك الساحة بلا حراسة حتى يسرقوا الجواد؟ قُل لنا الآن إلى أين أخذوا جواده؟

اعترض صاحب النُّزُل بحماسة لا تقل عن حماسة الياروسلافي:

- ماذا تقول؟ ماذا تقول أيها الياروسلافي السمين؟

- لا تهتَج، ماذا ستفعل لي؟ لم أصادف شيئًا كهذا من قبل.

تعالت أصوات الحاضرين وقال أحدهم:

- كفى، كفى، لن يفيدك بشيء. هل أمسكت بأحد يسرق الجواد؟ هكذا يحدث أيضًا عندنا؛ يسرقون الجواد وتجد نفسك بلا حول ولا قوة.

أجاب صاحب النَّزُل، محاولًا تملق الحاضرين:

- ماذا تقولون يا رفاق؟ ماذا تقولون؟ هل أنا منوط بي توفير حارس؟ لقد سمحت له بترك الجواد في الفناء، (ثم تحدث مشيرًا إلى أنطون) ولكن من الذي منعه من النوم هناك؟ انظروا إليه، لقد ظل يشرب طوال الليل، وهو الذي جلب ذلك على نفسه، وتريدون مني الآن ردًّا؟!

صاح أنطون في يأس، ملوحًا بيديه:

- أيها الإخوة، أيها الإخوة، فلتحكموا بأنفسكم. هو الذي أسكرني. أشهد أمام اللّه أنه هو من فعل ذلك بصحبة هذا السيد الذي هو أحد معارفه. اسألوه، اسألوه وحق إيمانكم بالمسيح.

قال الياروسلافي:

- يا رفاق، لقد رأيت بنفسي كيف أسكره في الليلة الماضية، إنني أشهد على ذلك.

- ولماذا أنكر ذلك؟ لقد شربت معهما. استدعاني صديقه، وهو الذي أتى به. حسنًا، لقد شرب.

- أنت تعرفه؛ أقصد هذا الضارب إلى الحمرة، ما الذي تتظاهر به؟

- ومن أين أعرفه؟ يا لك من عفريت! وهل لديَّ عدد قليل من الناس هنا حتى تجدني أعرف الجميع؟! إنها المرة الأولى التي ألتقي به فيها لماذا تستمعون إليه أيها الإخوة؟ ربما كان جواده مسروقًا من البداية كان عليكم أن تتأكدوا من ذلك أولًا.

- يا إخوة، الجواد معي منذ تسع سنوات، واللّه شاهد على ما أقول. اسألوا من تريدون.

- يا للخبث! ومن يمكنهم أن يسألوا؟

صاح مجددًا الفلاح المسكين في يأس عظيم:

- وماذا أفعل الآن؟ ما العمل يا إخوة؟

- اسمع يا أخي، ما اسمك؟

- أنطون يا عزيزي، وحق اللّه اسمي أنطون.

قال الياروسلافي وقد خطا خطوة إلى الأمام:

- حسنًا، اسمع يا أنطون. هذا ما يجب أن تفعله: عليك أن تهرع إلى المحكمة، ولا تسمع كلام أحد. امضِ إلى المحكمة مباشرةً. حسنًا، كم من المال لديك؟

- ولا كوبيك واحد، يا للمصيبة! لو كان معي مال لما جئت لأبيع جوادي الأخير. آه من الحاجة.

اعترض صاحب النُّزُل بحماسة:

- ماذا؟ لا تحمل معك مالًا على الإطلاق؟ آه أيها الغشاش، وكيف تأتي إليَّ إذن من دون مال؟ أردت أن تسرقني؟ يا إخوة، انظروا إلى من وقفتم في صفه، انظروا إلى من دعمتموه، إنه نصاب.

- لقد أخبرك الضارب إلى الحمرة بالأمر. يا رب، فيم أخطأت أمام وجهك؟

قالها أنطون وقدماه تكادان لا تحملانه.

والآن يحاول التملص من الأمر وإلقاء اللوم على شخص آخر، آه أيها النذل. أنا الذي سوف يذهب إلى المحكمة، وسوف أجرك إلى قائد شرطة المقاطعة. أنا أعرف كل الرؤساء والقادة هناك.

تعالت أصوات الحاضرين:

- كفى يا رجل، سوف تتهمه عبثًا، انظر كم هو فلاح بسيط! إلى أين ستفضي به؟ إنه لن يتحمل المزيد؛ فهو بالفعل بائس وفقير، وربما لم يتبين جيدًا الشخص الذي يشير إليه.

لكن بالرغم من كل أحاديثهم ومن كل الاتهامات التي وجَّهها إليه الياروسلافي الممتلئ، لم يُرِد صاحب النُّزُل أن يستمع إليهم، وصار واضحًا أنه أخذ بلية أنطون على محمل الجد، وصمم على قراره. في النهاية اندفع كل الحاضرين إلى صاحب النُّزُل، وأمطروه بوابل من الشتائم، ثم اندفعوا مجددًا إلى أنطون الذي جلس في هذه اللحظة في منتصف الساحة على عارضة البئر، ممسكًا وجهه بيديه، منتحبًا أكثر من أي وقت مضى. بدأ واحد منهم الحديث قائلًا:

- اسمع يا أخي أنطون، لا تحزن، لن يعيد لك الحزن جوادك. لا تزال أمامك فرصة للتغلب على حزنك. هذه ليست المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك. اسمع، اذهب مباشرة إلى قرية زابولوتي. أتعرف زابولوتي؟

- لا يا سيدي، لا أعرفها. لست من هنا.

- لا مشكلة. اسلك هذا الطريق الواسع مباشرة، وبعد أن تقطع 10 فرستات خذ يمينك، واسأل هناك. فور أن تصل إلى زابولوتي اسأل عن إيليوشكا ستيبنياكا، وسيدلُّونك عليه هناك.

- دعك من كل هذا يا صديقي، فما جدوى الذهاب إلى زابولوتي؟ يجدر بك البقاء هنا، وربما تجد جوادك. اسمع يا أخي أنطون، اذهب مباشرة إلى نواحي قرية جورافنا. إنها على بُعد عشرين فرستًا. أعرف أن اللصوص والمحتالين يقطنون هناك منذ زمن طويل، وأحيانًا أيضًا يخفون الخيول هناك. اذهب إلى هناك.

- وكيف أصل إلى هناك؟

- ما إن تصل إلى الطريق الرئيس انعطف يسارًا صوب الطريق الريفي، وهناك ستجد قرية زافالي. ادخل زافالي واسأل هناك عن بئر سيليزنيف.

قال أحدهم:

- لقد نسيت قرية كوكينوتو.

- نعم. ما إن تصل إلى زافالي، اسأل عن قرية كوكينوتو. لقد أخطأت قليلًا في وصفي. من بئر سيليزنيف امضِ مباشرة إلى جورافنا. الإقطاعية هناك كبيرة.

قاطع الحديث فلاح طويل أصلع تقدم ببطء صوب المتحدث:

- أيها العم ميخيكا، أيها العم ميخيكا.

- ماذا تريد؟

- اسمع أيها العجوز ماذا سأقول لك.

- قل.

- الحقيقة أن من الأفضل له أن يذهب إلى محطة كوتلي. بأمانة هذا هو الأنسب له. أنطون، عليك أن تذهب إلى كوتلي صحيح إنها أبعد قليلًا، لكن هذا هو الأفضل يا أخي لقد سرقوا من أحد رجالنا جوادًا مخصيًّا، وقيل إن هذا الجواد المخصي الرائع والمهم موجود هناك، ووجدوه فعلًا هناك.

- يا لك من حذق! ولكن أترسله يا حذق مسافة سبعين فرستًا؟

أجاب الرجل بشعور من أهينت كبريائه:

- وماذا في ذلك؟ فليقطع حتى مسافة مائتين فرست في سبيل العثور على الجواد.

- كفى، أنطون، أقول لك اذهب إلى جورافنا، مسافة سبعين فرستًا؟

أجاب الرجل بشعور من أهينت كبريائه:

- وماذا في ذلك؟ فليقطع حتى مسافة مائتين فرست في سبيل العثور على الجواد.

- كفى، أنطون، أقول لك اذهب إلى جورافنا، وهناك ستنهي الأمر.

وصاح كثيرون:

- إلى جورافنا، إلى جورافنا.

قاطعهم صاحب النُّزُل بحدة:

- أيًّا كان الأمر، لن أتركه يرحل لمجرد إرضائكم. أيأكل ويشرب وأتركه يمضي مجانًا؟ إذا كان الأمر كذلك فيمكن للمرء إذن أن يبتهج ويعبث أكثر من الجميع ثم يطالبونه بالدفع فيقول لهم: ماذا تريدون؟ لا، لا يعجبني ذلك.

- ماذا تقول؟

- أقول ما العمل الآن؟ ها؟

قال أنطون وقد نهض على عجل:

- وما الذي يمكنني أن أدفعه لك؟ خذ ما تريد، خذ، لا تُبقي شيئًا.

- أعطني معطفك القصير.

- خذه، خذ ما تريد.

- إذا عدت إلى هنا مجددًا فسأعطيك إياه، شرط أن تجلب من القرية 9 جريفنا مقابل النومة والعشاء.

قال الياروسلافي:

- يا لك من إنسان جشع! جشع حقًّا، ليست في قلبك شفقة، انظر كيف صار الجو باردًا في الخارج، انظر، إنها ستمطر الجو يبدو كما لو أننا في سيبيريا كيف يمكنه أن يمضي من دون معطف فور أن يخرج من البوابة، سيجد البرودة قارسة.

- وما شأني بكل ذلك؟ لقد أكل وشرب و...

- ماذا تريد؟ آه أيها الـ...

- أتقول ماذا أريد؟ حسنًا، ما دمت تشفق عليه أعطه معطفك لو شئت.

- وكيف أسير في الخارج؟

- حسنًا، هكذا هو الأمر. الجميع يثرثرون، بينما يبحث كل واحد منهم في الحقيقة عن مصلحته.

قاطع أنطون الحديث مجددًا وهو يعطي معطفه لصاحب النُّزُل:

- إلى أين أذهب الآن؟

تعالت أصوات عديدة:

- اذهب إلى جورافنا.

- فور أن تخرج من البوابات انعطف يمينًا عند الطريق الريفي. لا تنسَ، زافالي، كوكينو.

- شكرًا لكم يا أعزائي، شكرًا لكم.

هكذا تمتم أنطون راكضًا صوب الشارع.

صاحوا من خلفه وهم يخرجون من البوابة أيضًا:

- إلى الأمام مباشرة، اذهب عساك تجد الجواد.

قال أحدهم عندما ابتعد أنطون كفاية:

- من الصعب جدًّا أن يجده، فليس لديه أي مال.

- آه، وأين يجده الآن؟ سينهك المسكين نفسه بلا جدوى.

- فليبحث عنه، وربما يجد أثرًا له بطريقة ما. من دون المال يكون الأمر بالطبع سيئًا، ولكن كل شيء يتم برحمة اللّٰه.

- أيها العم فيدوسي، ما رأيك، هل سيجد الجواد أم لا؟

- مستحيل، اسمع، ما دام ليس لديه مال، سينهك نفسه بلا جدوى.

في هذه اللحظة توقف أنطون عند ضفة النهر، وصاح:

- إلى أين أمضي لأصل إلى الطريق الرئيس؟

أجاب الفلاحون بصوت واحد:

- اذهب، اذهب إلى الأمام مباشرةً صوب الجبل بالقرب من المدينة. اصعد الجبل، اصعد الجبل.

استمروا في الصياح بهذه الطريقة طويلًا حتى تلاشى أنطون من مرمى البصر، وابتلعه الجبل تمامًا، وهم لا يزالون في مكانهم من دون أن يتوقفوا عن الصياح والتلويح بأذرعتهم في كل الاتجاهات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-7-

حكايات

في النهاية هدأ الفلاحون تدريجيًّا؛ منهم من جلس على الدكة القريبة من البوابة، ومنهم من جلس على مصطبة الكوخ الخارجية. دارت الأحاديث والحوارات عما حدث. انضم صاحب النُّزُل إليهم كما لو أن شيئًا لم يحدث، إلا أنه في البداية لم يشارك في الحكايات التي انخرطوا فيها، وجلس صامتًا، وبين الحين والآخر كان يبسط أمامه معطف أنطون القصير، ويفحص الثقوب والبقع الموجودة فيه، وأخيرًا طواه ووضعه تحته، وجلس قريبًا، وحينها بدأ يشارك في الحوار الدائر بشكل غير ملحوظ، حتى بدأت مشاركته تصير فعَّالة. في غضون نصف ساعة انتهى الأمر بأن صار الجميع - بمن فيهم أولئك الذين عنَّفوا صاحب النُّزُل أكثر من غيرهم - يوافقونه على كل شيء، بل وصل بهم الأمر تقريبًا إلى إلقاء اللوم على أنطون المسكين. حتى الياروسلافي الممتلئ الذي وقف في صف الضحية بحرارة، بدأ يتراجع عن موقفه تدريجيًّا. قال بلهجة هادئة لصاحب النُّزُل:

- أَفهم ما تقوله. من يعرف ما الذي وراء هذا الإنسان؟ لا أحد يمكنه أن يعرف ما الذي يفكر فيه شخص آخر. أنا عنَّفتك؟ متى فعلت ذلك؟ صحيح أني تحدثت عن أمر المعطف، وشعرت بالأسف على الفلاح ، ولكن ذلك بسبب البرودة القارسة، وأنا لم أعنِّفك؛ فلماذا أفعل ذلك؟

قال العجوز ذو الشعر الأشيب:

- كما تعلم يا أخي على المرء أن يجادل حقًّا، ولكن ما الذي قد يدفعك إلى أن تَكُن ضغينة له؟ (كان يُحدِّث صاحب النُّزُل مشيرًا إلى الياروسلافي) هو ليس قريبه أو أخاه. دعنا نبقي الأمر عند هذا الحد؛ كلمة قالها وأنت استقبلتها وحسب، فالشخص الذي نتحدث عنه قد يكون قد سرق هذا الجواد حقًّا، ومن أين لنا أن نتيقن من الأمر؟ إنه يتظاهر بأنه مجرد شخص عادي، انظر إليه، كم بدا جسورًا! قد يكون لصًّا أو محتالًا.

عاود الياروسلافي حديثه مجددًا:

- ولا شك في ذلك. كل شيء يمكن أن يحدث يا أخي. (وأضاف بعد برهة من الصمت) لا تغضب بخصوص ذلك. في منطقتنا، على بُعد نحو 5 فرستات عاش فلاح مُعتَق، وكان لديه ابن نبيل ووديع وكادح، وبوسعك أن تنسب إليه ما تشاء من الصفات الرائعة. كانا يعيشان في ازدهار. تراهما في الصيف يسيران في المدينة، كما كنت تجدهما يطليان أسطح المنزل، وفي الشتاء والخريف

تراهما يسيران عند المستنقعات يصطادان بنيرانهما كل إوزة أو أرنب يجدانه، وكان الناس لا يتوقفون عن إطلاق الشائعات والحكايات عنهما. آه، كم أشعر بالألم! لا أستطيع السير. وأي شائعات وحكايات كانوا يقولونها عنهما! حسنًا، أقول لكم، كانت هناك فلاحات ثريات، ولسن مثل الفلاحات المتسولات اللاتي نعرفهن. كان السادة يذهبون إليهن. وكان صاحبنا يخرج في أحد الأيام ليصطاد ويؤدي هذا العمل الفخيم، ويرغب بالطبع في نيل بعض المتعة. يُقال إن الشيوخ هم أفضل من يعرفون أماكن الإوز البري، ومن ثَم أينما يذهب كان يجد ضالته أما الابن، فاسمعوا يا إخوة ما سأقوله عنه، لقد كان من هذا النوع الذي لا تجد مثله في المقاطعة كلها أي تواضع اتسم به! لسوء الحظ تَعرَّف زوجة جندي ([26]) من كوماريف، وتعرفون طبعًا طبع الشباب، كم كانت امرأة عربيدة لعينة! تآلفا واتفقا على أن يعيشا معًا بالتراضي. وذات مرة يا إخوتي وصل إليهما صباحًا ثلاثة تجار، وعلى ما يبدو أرادوا هم أيضًا أن يصطادوا رأى الفتى بالصدفة لدى واحد منهم دفترًا يحوي نقودًا لا بد أنهم أتوا إليه من سوق أو آخر دق قلبه بقوة أقول لكم إنه فتى وديع، وليس هناك من هو أكثر وداعة منه من فرط غبائه أخبر زوجة الجندي عن المال، فظلت تدفعه إلى الاستيلاء على هذا المال وتقول له:

- خذه، خذه، لن يعرف أحد شيئًا عن الأمر يا بيتروخا، وكيف سيكتشف أحد الأمر؟

تحدث الحاضرون في صوت واحد في أثناء استماعهم للحكاية، هازّين رؤوسهم:

- كيف لن يعرف أحد؟ أي عمل هذا؟! آه أيتها اللعينة، انظروا ماذا تريده أن يفعل.

واصل الياروسلافي:

- المهم ظلت تستحثه بمثل هذه الكلمات، والفتى كما قلت لكم في البداية غبي، وتعرفون طبعًا كيف يكون الشباب، ومن ثَم أغرته مثل هذه الكلمات. وكما حكى بنفسه بعد ذلك، جلبت له مقدار شتوف من الخمر ليستجمع شجاعته، ولحقته بشتوف آخر، ومن يمكنه أن يتصور ماذا يمكنه أن يفعل بعدما شرب هذه الكمية! أي ضباب اكتنفه! تناول التجار الطعام وعبَّأوا أسلحتهم وذهبوا إلى الغابة، وأخذوا معهم هذا الفتى المدعو بيتروخا. وحدث ما حدث يا إخوتي. غرَّر الفتى بالتاجر الذي معه المال كي يذهبا معًا إلى إحدى المناطق النائية ليصطادا. وصلا. ما إن صرخ بيتروخا للرجل بشأن أرنب حتى اندفع الرجل بحمية إلى الأمام، فأطلق بيتروخا النار على ظهره طلقة مميتة، وضاع الرجل.

تعالت أصوات عديدة في الوقت ذاته:

- آه، أووه، يا خبر!

واصل الياروسلافي:

- حكى ذلك الفتى المدعو بيتروخا بنفسه فيما بعد؛ كيف شعر بالأسف والهلع، ويقول كم أسف على فقدانه، وكيف استدار التاجر صوبه، وكيف اضطرب قلبه عندما حدَّق فيه التاجر. يقول الفتى: «لم أعرف ماذا حل به. لم أفهم دماء من التي تسيل». ولكن ما إن سقط التاجر حتى اندفع بيتروخا واستولى على ماله كما نوى، ودفن المبلغ في الأرض وبدأ يصرخ طلبًا للمساعدة قائلًا: «لقد أطلق النار على نفسه، أطلق النار على نفسه». ورَّط الفتى نفسه في عمل قاسٍ، وهرع التاجران الآخران إلى بيتروخا يسألانه عما حدث، أما هو فتلعثم في حديثه وارتاع. رأى التاجران الآخران كيف أصيب صاحبهما من ظهره، وبدا الأمر لهما مريبًا، ففتشاه ولم يجدا النقود. قبضا على بيتروخا، وانخرط في الكذب عليهما. سجناه، وهو لا يزال موجودًا في سجن بلدتنا. هذا ما حدث أيها الإخوة، لكني أقول لكم إنه لا يوجد من هو أكثر وداعة من هذا الفتى، فتى ماهر وحاذق.

سأل عدة أشخاص من الحضور:

- ولكن كيف انتهى الأمر يا أخي؟

- أتقولون كيف انتهى الأمر؟ انتهى هكذا؛ بيتروخا في السجن منذ عام، وفي هذه الأثناء ظل الأب العجوز يسعى هنا وهناك، ويوزع المال على هذا وذاك بحسب ما يقولون لكن الأمر كان قد حُسِم، وصار بهذا السوء الذي لا يعلمه سوى اللّه عادت زوجة الجندي رفيقة بيتروخا إلى عادتها القديمة. انظروا إلام دفعته، ولا العفريت حتى يعلم كيف يمكن إرضاؤها. كل ما حدث أن أفضت به إلى السجن. ظلت تذهب إليه مرة واثنتين وثلاث هذه الشريرة، وتسأله عن المال. كان الفتى طيبًا، ومن حماقته دلَّها على المكان الذي دفن فيه المال. كما تعلمون ربما قال في نفسه إنه بهذه الطريقة سيكون قد ضاع من أجل لا شيء، وإن من الأفضل أن يدعها تنال المال وتُحسِّن أمورها. المهم أنها وصلت إلى المال، وأخذت تنفقه على متعتها، هذا ما فعلته لم يمر عليها يوم من دون أن تشتري دثارًا وحريرًا ومختلف أنواع الزينة، ولم يكن هناك لون واحد يمكن للمرء أن يجده في الحقل ولا يجد لديها ثيابًا باللون ذاته تعرفون طبعًا طبع النساء، وكيف يمكنهن أن يدخرن المال وما إلى ذلك، أما هي فقد بددته في كل مكان قال الناس في كوماريف: ماذا تفعل؟ من أين أتت ماتريوشكا بكل هذا المال؟ كلمة هنا وكلمة هناك، وظل اللغط والقيل والقال يزدادان، وصار الجميع يتحدثون عن الأمر ويتساءلون من أين أتت بالمال

وكيف تحصلت عليه في النهاية أدركوا الأمر، ومهما فعل الأب العجوز لم يعد في يده شيء، خاصةً بعد أن أنفق كل ما معه في هذا الوقت، ووزع على هذا وذاك بلا جدوى قيَّدوا بيتروشكا بالأصفاد ونفوه لسيبيريا. أتذكر كيف أرسلوا هذا الفتى الطيب، وكيف بدا حينها، وكم احتشد الناس حينها! آاه، في الحقيقة كان العدد هائلًا، حتى إن الناس شعروا بالأسف عليه، فقد كان فتى طيبًا.

- وأبوه؟

- يُقال إنه مات في الشتاء السابق.

قال العجوز:

- انظروا إلى ما حدث، أي خطية جلبها إلى نفسه! أغوى نفسه بالمال. أتظنون أيها الإخوة أن الأمر قد حدث من دون غرض؟ فلْأمُت هنا لو كان الفتى قد ارتكب جريمته بسبب سذاجتها وحسب.

قال شخص آخر مستغرقًا في التفكير:

- من الواضح طبعًا أن الأمر لم يكن من دون غرض. عندما يُقبِل المرء على فعل مهم عليه أن يمعن التفكير فيه. ألم يهاجم لطمعه إنسانًا آخر بإرادته؟ وكأن قتل إنسان مجرد عمل بسيط. لقد أغواه بخبث.

في أثناء هذا الحوار اقتربت عربة من بوابة الساحة، جلس فيها فلاحان؛ أحدهما شاب لا يتجاوز الثامنة عشرة، والآخر عجوز. بدا الأخير أنه قد سهر في حانة حتى الفجر، وقد كان ثملًا تمامًا.

صاح العجوز من بعيد، مُلوحًا بقبعته في الهواء:

- أيها الرفاق، يا صاحب النُّزُل، هل يمكن ترك العربة عندكم حتى ننتهي من السوق؟

أجاب صاحب النُّزُل:

- تقدم، الساحة متوفرة لهذا الغرض.

فتح البوابة، وجلب الزوار تحت المظلة.

سرعان ما اصطحب صاحب النُّزُل العجوز المخمور والشاب معه وأجلسهما مع بقية المشتركين في الحديث. سأل العجوز وهو ينظر إلى الجمع من حوله بعينيه الضاحكتين الضيقتين:

- عمَّ تتحدثون يا شباب؟

ورفع قبعته، فبان للحضور رأسه الأصلع المتورد، والذي يغطيه الشعر الأبيض كالثلج، وقد سرحه على جانب واحد. انفجر الحضور في ضحك مجلجل، وتعالت الأصوات من كل مكان:

- انظروا إلى هذا المهرج، أي عجوز هذا! جدع، ما أحلى الأيام الخوالي! آه آه.

قال العجوز، وقد مال على جانبه وبدأ يرقص:

- ما الأمر؟ ما بكم؟ ألم تروا مثلي؟

قال الشاب بغضب وهو يحاول إيقافه عن الرقص:

- كفى يا أبي، أتتحامق وقد بلغت الشيخوخة! هل أتيت إلى المدينة لتجلب لنا السخرية؟ كفاك.

أجاب العجوز محاولًا أن يفلت من يد ابنه:

- ما بك؟ يا لك من... أنا سـ..... اتفو! ابصقوا على هذا النجس يا رفاق، تعالوا نجلس واحكِ لي أنت يا صاحب اللحية الحمراء عما يدور الحديث هنا.

أجابه أحدهم وقد أراد أن يثير العجوز الثمل بهدف الضحك:

- في الليلة الماضية سُرِق جواد أحد الفلاحين من هنا.

- أووف، سرقوه؟ ولكن أين هو الفلاح الآن؟ أهو في حانة يشرب ربع لتر فودكا من فرط الحزن؟

- كيف يذهب إلى الحانة؟! لقد هرع للبحث عن جواده.

صاح العجوز وقد إلتفتَ للحظة صوب ابنه الذي بدا غير راضٍ تمامًا عن مزاح أبيه:

- آاه يا فانيوخا المحتال، (وواصل حديثه وقد كشفت ضحكته الجشاء عن لثته الخالية من الأسنان). لن يؤلمه الأمر طويلًا يا رفاق. لقد إلتقينا خلف الشارع الرئيس بفلاح غريب، ظل يركض ويركض عبر الحقول كما لو أن عفريتًا يطارده. قلت حينها: «انظر يا فانيوشكا كيف يركض هذا الفلاح في الحقول»، وأجابني فانيوشكا: «صحيح»، وظللنا نراقبه وهو يركض ويركض، ثم صحنا فيه: «مهلًا، انتظر، انتظر، إلى أين تسرع هكذا؟». يا له من فلاح غريب الأطوار! غريب الأطوار حقًّا. لا بد أنه...

أجابت عدة أصوات:

- هو، هو بعينه.

وضع العجوز يديه على جنبيه، وارتج جسده كله من فرط استغراقه في الضحك. صار الحوار عامًّا، واندفع الكثيرون بفعل تعاطفهم مع هذا العجوز المهرج إلى أن يقصوا عليه في صوت واحد كل تفاصيل ما حدث ليلًا.

في هذه الأثناء حل الصباح، ودبت اليقظة في المحيط من حولهم تدريجيًّا، واندفعت العربات مجددًا على منحدر الجبل ودب النشاط في الخيم، وتناثر الناس مجددًا. شقت العبَّارة المليئة بالعربات والفلاحين مياه النهر، وحجب ضباب رمادي كثيف الضفة المقابلة لها تمامًا، وتعالت بالقرب من ساحة النُّزُل أصوات طرق الحديد في دكاكين الحدادة. بدأ السوق مجددًا، وقد جلب فرحًا للبعض وحزنًا للآخرين. في غضون فترة بسيطة امتلأت الساحة بالنزلاء الذين وصلوا من مناطق خلف النهر، والبعض جاءوا سيرًا من نواحي المدينة. تكدس الآتون من المدينة بالقرب من البوابة وحول الكوخ، وكان من ضمن هؤلاء الجماعة عدد كبير من الفلاحات المتسولات الهائمات. كان من المستحيل ألا يلاحظ المرء وجود أرخاروفنا بينهن. كان من الواضح أنها لم تكن تنتمي إلى أي مجموعة بعينها، وكانت تطوف هنا وهناك. لم يكن هناك من بين الحاضرين من لم يعرف هؤلاء المتسولات، لكن أرخاروفنا بالذات جذبت انتباه الجميع بثيابها التي تألفت هذه المرة من أسمال معقودة من رأسها وحتى قدميها، بحيث لم يظهر منها سوى وجه عجوز قاتم عابس، وعدة خصلات من شعرها رمادية مصفرة. ثمة أسباب أخرى لفتت الانتباه إليها أيضًا؛ ارتدت حذاءً طويل العنق بدلًا من حذاء ليفي ([27])، واستندت إلى عكاز طويل معقوف غالٍ، وأخيرًا حملت على ظهرها المحني حقيبة واسعة محشوة على آخرها، وبدت حرة في حركتها بالحقيبة كما يبدو الأمر مع أي عامل على متن سفينة. كان هناك ثلاثة شباب واقفين عند البوابة، وهم أول من انتبهوا إليها. قال أحدهم:

- انظر، انظر إلى هذه العجوز، إنها بابا ياجا، بابا ياجا فعلًا.

قال آخر:

- نعم، لو إلتقيتها ليلًا لخفت وظننت أنك رأيت عفريتًا لعينًا.

واصل الثالث الحديث ساخرًا:

- انظروا إلى العجوز، انظروا إليها، يا لها من مسخرة! لديها حمل ثقيل على ظهرها، ويمكن لأخينا أن يساعدها.

اقتربت أرخاروفنا من نافذة الكوخ، وهي تضغط على قدم فالأخرى، وطرقت إطار النافذة بعصاها برفق مرددة بحزن:

- يا محسنين، صدقة يا محسنين باسم المسيح.

فتح أحدهم النافذة، وبرز منها وجه زوجة صاحب النُّزُل المليء بالبثور وقالت:

- فليتحنن عليك اللّه. يتسكع الكثيرون منكم هنا، هيا امضي، امضي.

قالتها بفظاظة، وأغلقت النافذة من دون أن تقول المزيد. رشمت أرخاروفنا علامة الصليب وأحنت رأسها، واقتربت بالطريقة ذاتها؛ بانحناء وعرجة في السير، من الحشد الواقف عند البوابة. قال واحد من الشباب الثلاثة رابتًا على كتفها:

- إيه يا جدتي! ألم يحِن أوان موتك بعد؟

- ماذا تقول يا عزيزي؟

- أقول لك حان وقت الموت، فلماذا التسكع؟!

- من أجل الخبز يا محسن لا أجد خبزًا في أي مكان.

- وما هذا الذي تحملينه داخل الحقيبة؟ تبدو محشوة على آخرها.

قالها مقتربًا أكثر، مادًّا يده ليتحسس الحقيبة، لكن العجوز إلتفتت بسرعة صوبه، ولم تسمح له بذلك.

في هذه الأثناء قفز بحذق شاب آخر من الخلف كان واقفًا بالقرب منها، ولم تنجح في الالتفات صوبه، وأمسك بالفعل بالحقيبة بكلتا يديه وصاح وهو يكاد ينفجر من الضحك:

- انظري أيتها العجوز، لقد انسكبت الحبوب.

هناك ثقب في الأسفل. انظري، كل شيء ينسكب. انظري يا عزيزتي، هناك ثقب فعلًا، وكل شيء ينسكب.

تمتمت أرخاروفنا بغضب، محاولةً أن تخلص الحقيبة من يد الشاب:

- توقف، أي حبوب تتحدث عنها؟! إنها أغراض قديمة. كفى، توقف.

لكن الشاب استطاع بحركة واحدة من يده أن يُلقي الحقيبة، وأدار العجوز وأشار لها إلى الثقب الذي كان يتدفق منه حقًّا تيار صغير من الحبوب.

صاحت العجوز وهي تدفع المتفرجين، وتنحني على عجل:

- يااااه! آه، آه يا أعزائي، بعض الطيبين عطفوا عليَّ بهذه الحبوب لفقري، وها قد تبدد كل شيء، آه.

وانخرطت في البكاء. قال واحد من الشباب بسخرية:

- من الواضح كم أنتِ فقيرة، حتى إن حقيبة برمتها قد امتلأت بما زودكِ به الناس الطيبون! يا لهم من طيبين! لديهم حبوب ملء حقيبة، لماذا تدفعينني يا خالة؟ لن آخذها، لن آكلها.

وواصل حديثه وهو يمسك بيد أرخاروفنا، وبالأخرى يفتح الحقيبة:

- انظروا يا رفاق، انظروا كم هي فقيرة! ما الذي كومتِه هنا؟ لحم بقري في حقيبتكِ الصغيرة! يا عيني! ومقدار شتوف من الخمر في خرقة! مقداران! أيها الإخوة، مقدارا شتوف وقطعة شحم خنزير، وقمع مليء بالحبوب، الأمر الوحيد المؤسف يا خالة أنكِ لم تتناولي من ذلك سوى القليل، ولكن أليس لديكِ منزل فعلًا؟ لكنكِ اشتريتِ من السوق كل ما تحتاجين إليه لمنزلكِ. ألن تدعينا إلى منزلكِ؟ حسنًا، بمَ تبقبقين؟ انظروا كيف تزمجر! يقولون: «لن نأكل شيئًا أو نلمس شيئًا. نريد فقط أن نرى».

ولف ذراعيه حولها بقوة أكبر. قال عجوز وقد وصل إلى الحقيبة:

- انظروا حقًّا إلى ما كوَّمته، ولا تزال تطلب صدقة، آه منكِ أيتها الجشعة، عام بأكمله لا يكفي لتناول كل هذا.

أثارت كل هذه الملاحظات والقهقهة والسخرية من جانب الحشد والشباب المحيطين بها والمتسولين غضب أرخاروفنا، وتلاشى تمامًا مظهرها البائس وتواضعها المعتاد. صارت تسب كل من حولها وتصر على أسنانها، وبدت عجوزًا شمطاء فعلًا، وكلما طال المشهد بالطبع، صار الضحك أقوى فأقوى، وازداد إحكام حلقة الحاضرين حولها. أخيرًا انقض واحد من الجمع على الشاب الذي أمسك بها، وأمسك به من كتفه، وصاح فيه بقوة:

- إيه يا بيتروخا، دعها، سوف تعضك.

تراجع الشاب، وازداد عواء الحشد، وتعالت أصوات سباب مريعة من جانب العجوز. أخيرًا هبَّت أرخاروفنا، وانزلقت ربطة رأسها، وتناثرت خصلات شعرها الشيباء بنوع من الفوضى على الخرق التي ترتديها، وصار وجهها الذي شوهته أمارات الغضب منفرًا بشدة، حتى إن البعض تراجعوا إلى الخلف عندما رأوه. إلتقطت كل مشترياتها، وحشتها داخل الحقيبة مجددًا، وتناولتها بكلتا يديها، ثم رفعتها بخفة غير عادية على كتفيها، ونثرت سبابها مجددًا على الملاعين الذين أحاطوا بها، وسارت بخطوات حازمة صوب المدينة. حدث كل ذلك فجأة، حتى إن الناس تراجعت من المفاجأة، وعندما تلاشت العجوز تمامًا من مرمى البصر، تعالت ضحكات مجلجلة تصم الآذان من قلب الحشد.

كان العجوز الثمل الذي وصل بصحبة الشاب قد استعد للبدء في قص حكاية لقائه بأنطون لأحد الطحانين - وهو الأمر الذي كان يفعله في كل مرة، ما إن

يظهر وجه جديد على خشبة المسرح - عندما اقترب من حلقة الحاضرين إنسان طويل القامة، يرتدي ثيابًا فاخرة، دل كل شيء فيه على أنه عامل ميسور في أحد المصانع. ارتدى قميصًا قطنيًّا ورديًّا، وقد ائتزر بحزام صوفي منخفض مبرقش ذي حلية نحاسية. ألقى على كتفيه قفطانًا أزرق طويلًا للغاية بإهمال شديد. ارتدى أيضًا قفازًا سويديًّا أخضر مزينًا بجلد أحمر، وقبعة عالية مزينة بزهور قرمزية وشَكْل كعكة عيد القيامة، وأكمل هذا المنظر كله بدثار مزين بأشكال مربعة، يجر أطرافه على الأرض. رفع قبعته قليلًا وقال:

- مرحبًا يا إخوة، ألم يأتِ إلي هنا فلاح من تروسكينو يُدعى أنطون؟ لقد جاء إلى هنا ليبيع جواده. جواده أرقط صغير. وعدته أن آتي إليه، لكني لم أجده، وبحثت عنه على طول المجرى السفلي للنهر، لكني لم أجده في أي نُزُل.

سأله أحدهم:

- وما شكله؟

- يبدو هزيلًا وواهنًا، لا يتجاوز الخمسين، أشيب الشعر.

تعالت أصوات من الحشد:

- إيه إيه إيه! أليس هو الرجل ذاته يا إخوة؟!

إلتقط العجوز الثمل الحوار وقال:

- أليس هذا هو الذي قابلته على الطريق؟ قلت لفانيوخا انظر إلى هذا الفلاح الراكض، وقال لي...

قاطعه ثالث سريعًا:

- حسنًا يا أخ، لا تُعِد عليه حكاياتك.

- ماذا تقول؟ ما الأمر؟

رد متثائبًا:

- لقد سرقوا جواده ليلة الأمس.

صاح الرجل:

- حقًّا؟

- وحق المسيح هذه هي الحقيقة. لم أفارق هذا المكان. اسأل الرفاق لو شئت.

- ولكن كيف حدث ذلك؟ كيف؟

- اللّه وحده أعلم بالسارق، وهذا كل ما في الأمر.

- وأين هو الآن؟

- هرع ليبحث عن الجواد منذ وقت بسيط، ألم تقابله في طريقك؟

كان العجوز على وشك البدء من جديد:

- لقد إلتقيتُ به في الطريق، ظل يركض ويركض. الحقيقة أنه فلاح غريب الأطوار و...

قاطعه الرجل بشعور حقيقي بالتعاطف:

- يا للبلية! يا للبلية! احكوا لي يا إخوة كيف حدث ذلك.

حكى له الجميع فورًا ما حدث، إلا أن صاحب النُّزُل كان يقاطعهم باستمرار ويضيف ملاحظات مختلفة إلى الحكاية تبرر جانبه. كرَّر عابسًا وهو يحك مؤخرة رأسه بانزعاج:

- لقد غادر، اختفى تمامًا، المسكين قد دار رأسه. الحياة والموت بالنسبة له الآن سيان.

- أهو أخوك أم قريبك؟

- لا، ليس قريبي إنه من أبناء بلدتي لكني أشعر بالأسف الشديد عليه، وهو لي أكثر من أخ كم أشفق عليه! إنه فلاح طيب ورائع ومتواضع لا بد أن ناظر الأرض سيسحقه يا لحظه العاثر! لقد ضاع تمامًا بضياع الجواد.

- صحيح، الجواد أمر عظيم الأهمية في حياة الفلاح. في وجوده تمضي الأمور، وفي غيابه يسوء كل شيء.

بعد برهة من الصمت واصل حديثه، وهو يجلس على الدكة، هازًّا رأسه بحزن:

- ويا له من فلاح! يا له من فلاح! آه، كم أشعر بالأسف عليه!

- أعترف لك يا أخي أننا افترينا عليه وصدقنا ما قاله صاحب النُّزُل عن أنه ليس إنسانًا صالحًا، اللّه وحده يعلم ما الذي جعلنا نظن ذلك.

- سواءً صدقتم أم لا، أنا لا أمتدحه لأنه من أبناء بلدتي. اسألوه عنه يا إخوة. (بهذه الكلمات أشار إلى فلاح يرتدي قميصًا أحمر من ألكسندروفكا اقترب من زمرة المتحدثين، وصاح له حتى يتمكن من السماع) أتعرف يا بانتيوخا أي مصيبة حلت! تعالَ هنا.

- ماذا حدث؟

- لقد سُرِق جواد أنطون.

- يا خبر!

- إنها الحقيقة. الرفاق هنا يعرفون كل شيء عن الأمر. وأنا الذي تصورت أني سأسعده عندما يراك! آه يا للبلية!

وكرر لبانتيوخا كل ما سمعه من صاحب النُّزُل. قال الأخير بعد برهة من الصمت:

- لقد ضاع، ضاع تمامًا، اللّه يعلم ما الذي سوف يحدث له. سوف يقضي نيكيتا عليه. لقد تحطم فعلًا. كم هو بائس!

- ومَن نيكيتا هذا؟

- ناظر الأرض.

- ولماذا يقبض عليه؟ الجواد في النهاية ملك للفلاح لا للسيد.

- لقد أرسله إلى هنا ليبيع الجواد حتى يسدد بثمنه ضريبة الرأس.

- آاه، هذا هو الأمر إذن! يا للفلاح البائس!.

- وأي بؤس! لقد تحطم تمامًا كل هذا بسبب الناظر لقد أرسل لنا السيد وحشًا لا ناظرًا.

- أهو مؤذٍ للغاية؟

أجاب بانتيوخا، مشيحًا بذراعه، جالسًا على الدكة بالقرب من رفيقه:

- إنه كالمطرقة، نزاع للخصام، أووه! يا للبلية! وهو لا يفعل ذلك مثلًا لسبب ما، بل حتى من دون سبب. يمكنه ببساطة أن يقضي على حياة أخينا، ويعيش مرتاح البال.

قال الياروسلافي الذي ظل صامتًا طوال تلك الفترة:

- الأمر ذاته عندنا. لدينا إقطاعية كبيرة، والناظر واحد من هؤلاء الألمان. كم هو مؤذٍ! إنه لا يخشى اللّه، ولا يخشى الناس، ولا يخشانا بالطبع نحن الفلاحين. إنه كالموت. ذات مرة كنت أتمشى، وأعترف أني لم أُولِه انتباهي، ولم أخلع قبعتي تحية له، وما إن اقترب مني حتى وجدتني أقول له في نوبة غضب مفاجئة: «كارل إيفانوفيتش، لماذا تضربني هكذا؟». كم يجلدني بقسوة يا إخوة! حسنًا، قلت له: «ألا تخاف اللّه يا كارل إيفانيتش؟!»، ما إن بدأت في ذلك حتى وجدتني قد استغرقت تمامًا في الأمر، ولم أعد أضع اعتبارًا لأحد،

حتى لو كان هذا الألماني البدين. سألته لماذا يضربني لكنه هو نفسه لا يعرف، فلديه قلب متكبر، بل شديد الكبرياء.

- وها هو رجل آخر غير متكبر، يشفق على الفلاح.

قال العجوز:

- إنه يعاني من واحد من أبناء جنسنا، لكن الأمر مع الألمان أسوأ، خاصةً عندما يترك لهم السادة الحبل على الغارب، وتكون معيشة السيد خارج الإقطاعية، حينها تكون بلية حقيقية. وانظر كيف سيتعقد الأمر بطريقة سوف تتذكرها للأبد ليس عبثًا إذن إن قال لنا شيوخنا إن الرعد يمكن أن يرعد بفعل كومة عفنة قل لنا يا أخ لماذا يعامل ناظركم ابن بلدك بهذه القسوة؟ قلت إن اسمه أنطون، أليس كذلك؟

- إنه يعتقد أنه شكاه للسيد في بطرسبرج.

تعالت أصوات مختلفة من حلقة الحاضرين التي ازدادت كثافة أكثر فأكثر:

- أهكذا؟ أرأيت؟

- لكنه لم يشكُه إطلاقًا. وحتى لو فعلت له كل ما يمكنك فعله فلن يرضى عنك أبدًا. ذنبك حينها يكون في أنك بقيت.

- كيف ذلك؟

- السيد قد مات منذ نحو خمسة أعوام، وظل نيكيتا الناظر على الأرض. في الظروف الطبيعية لم يكن ليبقى كل هذا لولا رغبة السيد العجوز. الأمر أنه قد أعطاه زوجته. أعطاه إياها بالرغم من توسلاتها.

- أتقول إن السيد هواها؟

- وأي هوى! هواها بصورة يصعب وصفها. ولدت له ابنة، وهي تعيش الآن مع أمها، لكنها تحيا حياة سيئة في الكوخ نيكيتا لا يحبها، لكن هكذا استطاع أن يبقى ناظرًا علينا حتى الآن، وبعد موت السيد صار يثقل كاهلنا جميعًا في ظل حياة كهذه صار الهرب أفضل، عندما كان السيد حيًّا كانت أمورنا بخير. اعتدنا عليه بالطبع، ولكن بعد موته لم يعد هناك سوى التوبيخ والضرب كما تعرف، وأي وحشية تُضرب بها! مصيبة، يضرب ويسحق، الفلاحين والفلاحات على السواء، ويبتكر كل إهانة ممكنة.

- وماذا عن السادة الشباب؟

- سادتنا الشباب هما ابن وابنة، ويعيشان في بطرسبرج. لم نرَهما قَطُّ رؤية العين. لا بد يا إخوة أن هناك سببًا لعدم معيشتهما معنا أو حتى زيارتهما

للمكان. السادة الآباء طيبون وجيدون معنا، وستكون خطية أن نقول إنهما أوقعا شرًّا على أحد، بارك اللّه في حياتهما وأعطاهما عمرًا مديدًا. كان أخي في بطرسبرج، وهو يقول: السادة عظماء، ولكن كيف يمكن أن يصل إليهم كل شيء؟ لديهم إقطاعيات كثيرة، والمَثَل يقول إنك لا تستطيع التسكع في كل مكان. إنهم يعيشون في بطرسبرج. آه أيها السادة، كان من الممكن أن يسعدوا بمساعدة فلاحيهم، خاصةً النبلاء منهم، ولكن كما تعرفون، كل شيء محجوب ومخفي عنهم، ولا يصلهم سوى أن كل شيء بخير والجميع على ما يرام. إنهم يعرفون أنه من الجيد أن يعيش السيد من أجل فلاحيه، وهم يؤمنون بذلك، لكنهم طيبون، وستكون خطية أن نقول إنهم إذا عرفوا كم المظالم التي يتعرض لها الفلاحون من نظار الأرض، وكيف يتحملون كل هذا الفقر لم يكونوا ليفعلوا شيئًا. إنهم يقولون: ما الذي يجعلنا نكدر أنفسنا بكل ذلك؟ فلنترك الأمر للناظر، ونعطيه السلطة عليهم، وليفعل ما يحلو له، وليبعدنا عن الفلاحين ومشكلاتهم. كان يمكن للأمر أن يكون حسنًا لو كان التعامل مع السيد مباشرةً، أيًّا كان أصله النبيل، ولم يكن ليتوجب علينا حينها أن نقاسي كل ذلك، فالناظر ليس سوى وضيع متنكر في زي سيد، حليق اللحية، لكن ليست فيه نفس السيد انظروا إليهم؛ لا يُنتظر منهم خيرًا، وهم لا يفهمون شيئًا في عملنا كفلاحين، ويسلكون حسب هواهم. ما إن بدأ الناظر عمله حتى بدأ يضطهدنا ويعاملنا معاملة سيئة، ومن ثَم اشتركت القرية كلها في كتابة شكوى ضده للسيد الشاب في بطرسبرج. وافق الجميع، واجتمعوا ليلة في الحظيرة، لكنهم كانوا سكارى بحسب ما أتذكر. الحظيرة كبيرة جدًّا، وهي تقع خلف حديقة السيد، وكان أنطون معنا أيضًا.

في هذا الوقت حدثت بعض الحركة وسط الجماعة، واقترب بعض المستمعين أكثر من المتكلم، وفي الوقت ذاته تعالت أصوات من كل الأطراف: «ها، ها».

واصل عامل المصنع حكايته:

- ولكن يلزم القول إنه الوحيد من بين كل سكان تروسكينو الذي يجيد القراءة والكتابة، وهكذا اعتادوا إذا أرادوا أن يكتبوا خطابًا أو يقرأوا بعض المزامير على روح أحد المتوفين، كانوا يستدعونه. هكذا أجبروه على كتابة الشكوى: اكتب، جهز الخطاب. وهكذا كتب وأتم الأمر. حسنًا، أرسلو الخطاب إلى بطرسبرج، ولم يشم أحد خبرًا عن الأمر. لقد تعهدوا ألا يخبر أحد امرأته، وظنوا أنهم بهذه الطريقة سوف ينجحون، ولكن الأمر لم يتم بهذه الطريقة.

- لدى ناظرنا نيكيتا فيدوريتش أخ يعيش في بطرسبرج، وهو من النوع الشرس، ويمضي دائمًا خلف سيده، ولكن يا لقوته! عمومًا الناس الذين في وضعه هناك مثله تمامًا، وهم جميعًا متآلفون. بالطبع لم يصل خطابنا إلى السيد مباشرةً، بل وقع في يد البعض أولًا.

عرفنا لاحقًا أنه وقع في يد أحد البوابين أولًا. لديَّ أخ في بطرسبرج، وكان يومًا عند السيد في الرواق المخصص للزوار. من الواضح طبعًا إلى أين يؤدي كل ذلك. العاملون هناك جميعًا حاذقون، وليسوا قرويين مثل أخي، وما إن وصل الخطاب إلى أيديهم حتى عرفوا ماذا يمكن أن يكون فحواه قالوا بالطبع في أنفسهم إن مثل هذه الورقة لا بد وأنها تحوي أمرًا غير جيد، ومن ثَم خمنوا الأمر، وأخفوها عن السيد حتى يتأكدوا من فحواها أولًا. وكما تعرف، كتبنا بالطبع في الخطاب أن الناظر يضربنا بعنف من دون سبب، ويهيننا مختلف أنواع الإهانات. أدركوا بالطبع كيف أن هذا ليس في صالح نيكيتا، فأخذوا الخطاب وأرسلوه له وأرفقوا معه خطابًا من جانبهم. بعدها جمعنا الناظر ذات يوم في الصباح، وكان في حالة هياج وغضب. لم تخطر على بالنا إطلاقًا حقيقة ما حدث. آه لو رأيتم كيف ظل يصرخ، بدا صراخه يخترق الجلد كالصقيع: «آه أيها الملاعين، حسنًا، سأعاملكم بطريقتي الخاصة. من كتب شكوى ضدي؟ الأمر سيئ، ولن تهربوا من المتاعب». قالوا جميعهم بصوت واحد: «أنطون». قالوا في أنفسهم إن من المهم أن يفلتوا بجلدهم، وليضحوا به من أجل الجميع. جاءوا بأنطون، وكان خائفًا بشدة، لكن الناظر لم يفعل معه شيئًا في صورة غضبه، ولم يقضِ عليه حتى لا يعرف السيد. كان لأنطون أخ متزوج يُدعى يرمولاي، سجَّل الناظر اسمه ليكون أول المجندين، كما ظل يرسل أنطون للعمل بالسخرة مرارًا وتكرارًا من دون أن يشطب اسمه. الأرض لديه سيئة كما هي الحال معنا جميعًا، فلم يعد هناك من يعتني بها ويرعاها، ولم تثمر شيئًا كما ترون، بقيت عائلة الأخ في رعاية أنطون، وهما طفلان صغيران، لا يمكنهما تقديم أي مساعدة، بل يلقيان على كاهل أنطون عبئًا فوق عبء.

قال الياروسلافي الممتلئ متنهدًا:

- وما نوع المساعدة التي يمكن أن يقدمها مثل هذين الطفلين! إنه فلاح بائس حقًّا.

واصل عامل المصنع حديثه، وقد بدأت حماسته تزداد تدريجيًّا:

- ولم يقتصر الأمر على ذلك أيها الإخوة، لقد انتزع منه أرضه انتقامًا.

صاح الكثيرون:

- كيف ذلك؟

- انتزعها وأعطاه أسوأ أراضي الإقطاعية كلها. من العام الأول لم يعد لدى أنطون خبز ولكن سنقول إنه عاش، عاش عيشةً ليست أسوأ من عيشة الآخرين. إبان أيام السيد الراحل كانت لديه قطعة أرض صغيرة جيدة، أما بعد

ذلك لم يعد نيكيتا يترك له حتى التبن لم يعد لدى أنطون ما يطعم به ماشيته، وحلت الفاقة بأقصى درجاتها، فاضطر إلى أن يبيع تارة جوادًا، وتارة بقرة، وتارة خروفًا، وماذا كان بوسعه أن يفعل خلاف ذلك؟ هكذا ظل نيكيتا يضطهده، ولا يسمح له بالذهاب إلى المدينة، ويقول له: وماذا سوف تفعل هناك؟ بِع ما لديك في القرية. وتعرفون بالطبع كيف يكون البيع في القرية، فالفلاحون فقراء وليس لديهم مال، ومن ثَم يكون البيع بمبلغ زهيد. وكل يوم يمر على أنطون أسوأ من الذي قبله، فالفلاح ليس فطرًا، ولا ينمو تحت المطر كم من الوقت يستغرق تدميره؟ هكذا قُضي عليه تمامًا إلى حد أن لم تعد لديه كسرة خبز تكفيه يومًا، ولم يعد هناك ما يغري الكلب الجائع بمفارقة موضعه.

- يا لها من عيشة! حتى الحجر يتشقق من شدة الحرارة.

قال أحدهم بدوره:

- آه، اللّه وحده يعلم الحقيقة، ويبدو أنها لا تنكشف سريعًا.

قال العامل في المصنع:

- آه من هذا المدعو نيكيتا، لو ينسى ضغينته مرة واحدة، قال لي صاحبنا إن أنطون ذهب إليه في هذا الخريف يطلب حورًا رجراجًا ليصلح به كوخه، فظل يعنفه ويعنفه، وذكَّره بكل شيء، ولم يعطِه. وهكذا استمر الأمر إلى أن وصل أنطون إلى ما فيه الآن. كم أشعر بالأسف عليه!

عاود الياروسلافي الحديث:

- وكيف لا تشفق عليه! آه، آه، تقول يا أخي إنه فلاح طيب.

- وأي طيبة! إنه إنسان بسيط، اعتاد أن يحيا حياة جيدة، وهو دائمًا على استعداد لاحترام الآخرين، وقد زادت طيبته وبساطته من معاناته. كم كانت نفسه طيبة!

- وما الذي سوف يحدث معه الآن؟ تقولون أيها الأخوة إن هذا كان جواده الأخير!

- نعم، الأخير.

- ليس في انتظاره سوى تجمد الوجه، والعاصفة الثلجية أمام عينيه. وضعه سيئ، ويصعب أن يجد الجواد.

- وأين يجده؟ أين يجده الآن؟ اللّه وحده يعلم إلى أين ذهبوا بالجواد.

قال الياروسلافي:

- يعلم اللّه أني لو عرفت مكان الجواد لساعدته حقًّا.

- اسمع يا أخي صاحب النُّزُل، كفاك جشعًا، ما أخذته منه سيكون خطيئة عظيمة على كاهلك. أعد له معطفه القصير، ها؟ ألم ترَ معطفًا قصيرًا من جلد الغنم لفلاح من قبل؟ ألا تسمع؟ الفلاح فقير ومعدم. عليك فعلًا أن تعيد المعطف يا أخي، هيا أعده.

أعلن العاملان بالمصنع ومعظم الحاضرين هذا الرأي. ظل صاحب النُّزُل صامتًا. كشف وجهه الهزيل عن لا مبالاته الكاملة بما يقولونه حوله، ولم يُظهِر ملمح واحد من ملامح وجهه أي حراك داخلي يعتمل فيه. أخيرًا نهض ببطء من جلسته، ومسَّد لحيته وتظاهر بمظهر قلق قائلًا:

- دعوني أمضي أيها الإخوة.

اقترب من البوابة، ونظر إلى السماء التي بدأت تضخ أمطارها الغزيرة، وألقى معطف أنطون على كتفيه، ودخل كوخه. رافقه السباب واللعنات.

انهمر مطر خريفي بارد، أو «أفرز الثدي لبنًا» كما يقول القرويون، وازداد انهماره قوة أكثر فأكثر. في لحظة واحدة كان المطر قد شمل المكان كله تمامًا، وتردد عزف مياهه التي انهمرت من كل جانب، ومضت إلى النهر وقد تعالت بقبقتها. نهض الفلاحون من على الدكة واقتربوا من البوابات. قال الطحان السمين، واضعًا حذاءه طويل العنق تحت المعلف:

- ها هو السوق. انظر أي طقس سيئ قد أرسله الرب، حسنًا أني لم أستعجل في الطحين، وإلا كان قد صار نقيعًا.

قال شاب واضعًا يديه على جنبيه:

- انظر أيها العم تيفون، انظر كيف يركض الناس هناك عند الجبل، هناك، هناك عند الجبل. من الواضح أن المطر يهطل بغزارة هناك.

- يا له من مطر أيها الإخوة، انظروا كيف ينهمر بغزارة، الآن يأتي دور الصقيع، فكم من الوقت حتى تحل البلية وتتجمد المحاصيل الخريفية؟ سوف تُنقع في الماء تمامًا.

- لقد أخطأنا أمام وجه الرب، في العام الماضي كان محصول الحبوب سيئًا، ويبدو أن هذا العام سيكون الأمر كذلك أيضًا. يا للبلية!

قال الياروسلافي مقتربًا من أحد عاملي المصنع، متكئًا على الدكة:

- أينما ذهب سيجد السوء. انظروا كيف هي الريح الخريفية الباردة.

قال العجوز الأشيب، وقد اقترب منهم في هذه اللحظة:

- ظل يركض ويركض، كما لو أنه قذيفة أطلقتها. يا له من فلاح غريب الأطوار!

أضاف عامل المصنع مخاطبًا العجوز الذي من مدينة روستوف:

- اذهب أيها العجوز، لم يسألوك شيئًا. أشعر بالأسف عليه، أشعر بالأسف فعلًا.

- أضف إلى ذلك أنه من دون معطف، فقد أخذه منه صاحب النُّزُل، هذا الوغد، مقابل دينه. سوف يعذب البرد المسكين.

- سوف يغرقه المطر. انظروا إلى مدى سوء الطقس، إنه يزداد سوءًا، بل إنه يبعث القشعريرة في البدن. وانظروا كم الريح قوية، إنها تؤلم الساق.

- هل سيبتل حقًّا؟

- وكيف لا يبتل؟ يقولون إنه لا يرتدي سوى قميصه. ألم تسمع؟

- انظروا حولكم أيها الإخوة كيف هي السحب، لا بد أنها ستظل تمطر طويلًا.

- لندخل الكوخ، المطر سوف يغرق المكان هنا سريعًا، إنه رهيب، عسى أن يتحول ما نظنه شرًّا إلى خير.

ودخلت الجماعة الكوخ سريعًا لتستدفئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

-8-

نيكيتا فيدوريتش

بالرغم من أن الوقت كان مبكرًا، وبالرغم من الريح شديدة البرودة وتجمد البرك كان ناظر تروسيكنو: نيكيتا فيدوريتش، يسير منذ فترة طويلة.

وبدافع شعوره بالامتنان الشديد لسادته الشباب الذين وثقوا ثقة عمياء في نزاهته، وعهدوا إليه كاملًا بهذا العبء الثقيل المتمثل في إدارة شؤون هذه الضيعة التي تكاد تكون مفلسة، حاول بكل قوته أن يبرر ثقتهم هذه فيه، وإذا لم يفعل ذلك، فعلى الأقل لا يستغلها من أجل هدف شرير وهل كان بوسعه في هذه الحالة أن يرحم قواه وصحته؟ هل كان يتوجب عليه أن ينغمس في هذا الكسل الشنيع الذي لا يعرف سوى اللّه وحده لماذا قُدِّر على الإنسان الروسي؟ إدارة الضيعة لا تعني سوى القلاقل وصنوف العناء والمسؤوليات والواجبات. لا، لم يستطع نيكيتا فيدوريتش أن يسلك بشكل آخر. حتى لو وجد نفسه في ظروف أخرى؛ أي لو لم يكن محل هذه الثقة العمياء من جانب سادته، ووضعه القدر في مكانهم، يمكننا في هذه الحالة أن نضمن أنه لم يكن ليدخر أدنى قدر من حماسته أو نشاطه أو طاقته التي لا تُستنفد، والجلية تمامًا في عينيه الرماديتين اللامعتين لقد أدرك بعمق شديد مدى أهمية هذا العمل، بل بدا وكأنه وُلِد خصوصًا من أجل هذا العمل.

بالوضع في الاعتبار وجود عدة مئات من الأسر الفلاحية الفقيرة، والانخراط في أدق تفاصيل علاقاتها، والشعور باحتياجاتها وآمالها، وإتاحة الفرصة أحيانًا، بكلمة أو حتى بإيماءة، لتحويل أحزان أفرادها الخاصة إلى سرور، وإبداء الرضا عن أعمالهم التي أتموها بإنصاف، واستعدادهم الدائم لأداء الخدمات، وفي الآن ذاته رعاية أحوالهم واستقرارهم؛ باختصار، أن يكون بالنسبة لهم، هم الفقراء والودعاء، أبًا وراعيًا؛ يمكننا حينها فعلًا أن نقول: يا لها من مسؤولية ألقيت على عاتق نيكيتا فيدوريتش! هذا هو ما يمكن أن نتعاطف معه بحرارة قلبيًّا وذهنيًّا. وكم كان ناظر تروسكينو سعيدًا! كم سرَّه أن يكون في هذا الوضع! ثمة أناس يكونون مستعدين منذ طفولتهم للعب أي دور، ويعملون نهارًا وليلًا، ويبذلون كل قواهم ويستخدمون كل ما لديهم من وسائل، وبالرغم من كل ذلك لا يحققون ما يريدونه من أعمال وأفكار على أرض الواقع مثلما فعل. يكفي فقط أن نذكر الآن أنوشكا زوجته التي وضعها رهن إشارة السيد العجوز. يواجه نيكيتا فيدوريتش هدفه وجهًا لوجه، ويتصرف بناءً على ذلك. مع ذلك يُقال إنه بدأ يفعل كل ذلك قبل أن يحين أجل السيد العجوز.

بالرغم إذن من أن الوقت كان لا يزال مبكرًا، وبالرغم من البرودة القارسة، كان نيكيتا فيدوريتش إذن يتمشى. لقد ذهب فعلًا إلى حظيرة البهائم وألقى نظرة على المكان، حيث كانت هناك ثلاث بقرات سمينات ملك زوجته آنا أندرييفنا، وتأكد من وجود كمية كافية من العلف للبقرات الثلاث، ومسد على ظهورهن، ثم نادى راعية البقر العجوز فيكلا التي كانت تعمل بنشاط بالقرب من العجول الجليلة النحيلة، والتي عاشت طبقًا لذوق غريب لا يلائم سواها؛ عاشت على القش المخزَّن. ثم ألقى نظرة على مخزن الحنطة حيث كان بضعة فلاحين يسحقون الجاودار الخاص بالسيد. بعد أن أتم كل ذلك، توجه نيكيتا فيدوريتش إلى بستانه الخاص، كما كان يسميه، أي قطعة الأرض الضخمة التي زُرعت ورُوعيت بصورة ممتازة، والتي بوسع المرء أن يرى فيها وفرة من شجر التفاح والكمثرى والكتان وخلايا النحل، وحيث عانى اللفت والجزر والبصل والملفوف من مخالفات شديدة، حيث اقتصر وجوده على أداء دور زخرفي وحسب. ظل يثير ضجيجًا مع الفلاحين ليربطوا أشجار التفاح من أجل الشتاء، كما أحاطوا الأرض بسياج كثيف ومصرف. تمتم مشوحًا بذراعيه السمينتين: «يا له من شعب لعين! المشكلات تتراكم واحدة فوق الأخرى، وهم لا يفكرون في شيء سوى كيفية الاستيلاء على محصولك أولًا، ثم الاستلقاء فوق الموقد والاستغراق في نوم لا يقظة منه. هم لا يشعرون بالحاجة إلى فعل أي شيء آخر. شعب محتال وكسول ومخادع».

كان أوان الصقيع قد اقترب كما ترون، وقد عمد نيكيتا فيدوريتش إلى إلحاق الجميع بعمل السخرة، وقد ازداد تفكيره في مفارقة بستانه بحيث يستولي بكل سلام وهدوء على دراسة الحنطة الخاصة بسيده، ولكن الظروف لسبب ما كانت تتحرك ببطء، وكأنها لا تريد أن تتم الأمر، وقد أدى هذا الظرف بالناظر المسكين إلى شعور مُبرَّر بالسخط. بعد أن عنَّف الكسالى كعادته، وزوَّدهم بالنصائح المفيدة، ونوَّرهم بالحقائق، سار نيكيتا فيدوريتش في فناء سيده المهجور متوجهًا صوب المكتب مباشرةً. ولكن حتى هنا لم يتركوه ينعم بالراحة. لم يكد يخطو خطوتين حتى أطلت آنا أندرييفنا من النافذة الكبيرة بوجهها الأصفر، وقد ربطت حول رأسها وشاحًا أبيض بسبب تألمها من خراج اللثة الأبدي، وصرخت بصوت حاد مستاء:

- نيكيتا فيدوريتش، يا نيكيتا فيدوريتش، تعالَ اشرب الشاي، لن ينتظرك حقًّا. تعالَ بسرعة، كفاك تسكعًا.

أجاب الزوج القلق:

- قادم، قادم يا امرأة. لا يزال هناك وقت. قادم.

كاد من شدة الغضب أن يضرب ديكًا جاثمًا على السياج المجاور له ضربة يمكنها أن تشق عنقه، ولكن لحسن الحظ تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة. كان الديك ملكه على أي حال. سعل وبصق، وبعد أن ألقى نظرة أخيرة على الفناء دخل إلى الشرفة الخارجية.

شغلت شقته جزءًا من الجناح القديم الذي شُيِّد في الماضي من أجل استقبال الضيوف الذين يأتون عادة إلى المقاطعة ليقضوا أسبوعًا، وأحيانًا أكثر، بغض النظر عما إذا كان ذلك ملائمًا للمالك أم لا. لكن الآن لم يبقَ شيء من هذه الغرف الصغيرة المريحة، والأريكة القطنية، والفراش الريشي، وحوض الغسيل الموجود بالقرب من النافذة، المعلقة عليه دائمًا منشفة مبرقشة تؤخذ كتبرع سنوي قانوني من الفلاحات الكادحات. الأثر الوحيد الذي بقي لهذه الغرف هو الحائط الداخلي للبناية كلها، المطلي بالأصفر من عند الحواجز، والذي استُبدل به حائطان رئيسان وردهة داخلية في المنتصف تقسم الجناح نصفين متساويين. على باب أحد جانبي السقيفة عُلِّقت لافتة مكتوب عليها: «المكتب»، وعلى الباب الآخر لم تكن هناك أي لافتة، ولم تكن هناك حاجة إلى ذلك. عرف الجميع جيدًا أن نيكيتا فيدوريتش كان يعيش هناك. يستحيل على المرء ألا ينتبه إلى الممر الفاصل بين هذين النصفين؛ أي الردهة الداخلية. كان لهذين النصفين أيضًا غرض معين، بالرغم من أنه لم تكن هناك أي لافتة معلقة توضح ذلك. هنا كان نيكيتا فيدوريتش يعقد محكمة صيفًا، أو بالأحرى يمارس أعماله الانتقامية في حق الفلاحين المختلسين، الموكلة إليه مهمة الإشراف عليهم، وكان يمارس ذلك بصرامة لا تعرف الشفقة.

تألفت شقة الناظر من رواق معتم، وفي الآن ذاته هو مطبخ، بالإضافة إلى ثلاث غرف منيرة. حاول صاحب البيت وزوجته، كما حاول من عاشوا قبلهم في المكان، أن يحافظوا على نظافة ونظام الغرفة الأولى. كانت هناك أيضًا مساحة لبعض الأغراض التي تكشف عن ترف أصحابها. في أكثر أركان المكان إضاءةً ووضوحًا لمعت لوحة مصقولة للسيد الراحل مرتديًا ثوبًا فضيًّا، ليمارس دوره كأب سري بارك زوجة خادمه السابق، وبالقرب منه طقم خزفي مبعثر، أو بالأحرى عدة أطقم خزفية، ربما منحها أيضًا السيد في مناسبات شتى لجميلته آنا أندرييفنا. في الزوايا الأخرى بامتداد الحائط تراصت صفوف مختلفة ومتباينة من الأرائك، والمقاعد ذات الذراعين، ومقاعد من دون ذراعين، وأغراض أخرى من خشب الماهوجني المطلي، بالإضافة إلى مقاعد أخرى مغطاة بقماش صوفي امتلكه نيكيتا فيدوريتش، ولا بد أنه قد حصل عليه كإرث روحي عن سيده، أو تفضل عليه المرحوم به بعد وفاته! كانت الغرفتان الأخريان مملوءتين عن آخرهما تقريبًا بالسرائر الريشية والأقمشة الكتانية والصناديق ومختلف أنواع الأغراض الخاصة بالزوجين، باستثناء بالطبع السرير العريض العالي الذي يسع شخصين، الموجود بهيبة

أمام البابين. لكن لا أحد من الغرباء رأى هذا المكان، فلسبب ما لم يسمح نيكيتا فيدوريتش بذلك، ومن ثَم ليست لنا حاجة إليه.

قال نيكيتا فيدوريتش وهو جالس بالقرب من النافذة على المقعد القديم الواسع:

- أووف! آه يا عزيزتي آنا أندرييفنا، لقد فاض بي الكيل من هذا الشعب اللعين. اسكبي الشاي الآن. اسكبي أقوى. ما بكِ؟ ولي نعمتك ناظر تروسكينو يقول لك تعالَ يا أخي!

قال الجملة الأخيرة لطفل أخرق بدين بدانة غير عادية، في الخامسة من العمر، كان جالسًا في أحد الأركان تحت ساعة الحائط، وقد جذب قطة صغيرة قد ربط قدميها الخلفيتين بحبل.

- أنت يا محتال، لماذا ربطت القطة؟ أطلقها وكف عن دعك عينيك.

نهض الطفل الذي يعاني من مرض كساح الأطفال الذي قوَّس قدميه، على أربع، وانحنى وقد أصدر أنينًا وخشخشة، وبدا في سيرته على أربع كذكر البط، واقترب من أبيه.

واصل نيكيتا حديثه، والطفل ناظر إليه بوجه ينم عن اعتداد صاحبه بنفسه:

- قُل لي أيها الشاب، لقد نسيت، أي نقود تحبها أكثر: الورقية أم الفضية؟

كان هذا هو السؤال الأبدي المفضل الذي يطرحه نيكيتا فيدوريتش على ابنه عدة مرات في اليوم. أجاب الطفل لاهثًا:

- الورقية.

- هاهاها. حسنًا، ولماذا تفضل الورقية؟

أجاب ابن ناظر تروسكينو بصوت كشف بوضوح أنه قد ملَّ فعلًا من تكرار الأمر ذاته مرارًا وتكرارًا:

- أسهل في حملها.

- هاهاها. حسنًا، اذهب إلى أمك، سوف تعطيك قطعة سكر. هل أكلت كعكة زنجبيل اليوم؟

قال الطفل، ناظرًا بتجهم إلى أمه:

- لا.

- خذ كُل يا نذل إذن، كُل يا محتال.

قالت آنا أندرييفنا:

- كفاك تدليلًا له يا نيكيتا فيدوريتش؛ إنك تفسده. أنا لا أتصور ما الذي سيصير إليه، إذا كان لا يمكن ترويضه من الآن.

قال الزوج وهو يرشف الشاي بصوت عالٍ:

- حسنًا حسنًا يا عزيزتي، سترين كيف سيصير شابًّا رائعًا. هاهاها. فانيا، (همس له وهو يلتقط قطعة سكر) خُذها في صمت، انظر، إنها لن تعطيك شيئًا. حسنًا يا عزيزتي آنا أندرييفنا (واصل بصوت عالٍ) ألقيت اليوم نظرة على بقراتك، ولكن لا شيء يمكن أن يُقال على البقر، إنه مجرد بقر.

قالت الزوجة:

- يبدو لي فقط أن فيكلا بدأت تهمل عنايتها بالبقر. أنت لم تُروِّعها ولا مرة واحدة يا نيكيتا فيدوريتش. لا تلقِ بالًا إلى أنها بلغت الستين إنها محتالة فعلًا.

- ربما قد تعجلتِ قليلًا يا عزيزتي اليوم عنَّفتها بشدة، لكني أشرفت أيضًا على تسييج بستاننا الصغير أمرتهم أيضًا أن يسيجوا حول الأرض، وذلك حتى نضمن ألا تشرد بقرة أو نعجة. لا يمكن أبدًا للمرء أن يضمن أمره مع مثل هؤلاء الناس. تحدثت إليهم مجددًا. قلت لهم إني لو إلتقطتُ بقرة أو نعجة أو جوادًا سآخذه لنفسي فورًا ([28]). قلت لهم مهما ستبكون حينها سآخذها، ولن أعيدها. ولكن كم مرة تكرر الأمر؟ ينصاعون لكلامي خوفًا لأسبوع والثاني، ثم تنظرين وإذا الأمر يتكرر! حسنًا، سأتعامل مع الأمر. صُبي لي المزيد من الشاي.

- قالت لي زوجة القس إن السوق كان جيدًا جدًّا، وإن مختلف أنواع الماشية كانت تُباع هناك بسعر زهيد للغاية. كنت قد وعدت بشراء بقرة أخرى من السوق. للأسف قد فوَّته بالرغم من أن كل شيء في يدك يا نيكيتا فيدوريتش.. كل شيء في يدك. عليك أن ترسل أحدًا إلى المدينة سريعًا.

أجاب بأقصى قدر من اللا مبالاة بزوجته:

- لا، لن أرسل أحدًا إلى المدينة.

عارضته بغضب:

- كيف ذلك؟ ألن ترسل ضريبة السادة بالبريد؟

- لم يتم جمعها بعد، وحتى لو كانت قد جُمِعت، ليس هناك داعٍ للاستعجال. دعيهم ينتظرون. كتب لي أخي تيرينتي فيدوريتش ألا أرسل للسيد مالًا الآن، لذلك ليس هناك أي داعٍ لإرسال المال الآن. الأمر الجيد إذن هو أني سألاعبهم حتى أعوِّدهم على ذلك. أنا أعرف سيدنا الشاب. لقد كتب لي تيرينتي

فيدوريتش أنه صار يلعب الورق مجددًا، كما كتب لي أنه خسر، وصار في حاجة ماسة إلى المال، لكني لن أرسل المال الآن، فهو الذي ورَّط نفسه في بطرسبرج. لا تحاولي تعليمي يا امرأة ماذا أفعل، فأنا أعرف كيف أتعامل مع هؤلاء السادة. كتبت له: «ليس لديَّ مال» وحسب. أقول له يا سيدي الأرض لا تنتج شيئًا، وفشل حصاد الشوفان، والحنطة قد فسدت من الرطوبة. وأظل أقول وأقول، وهل يمكن للسادة أن يفهموا شيئًا؟ الحنطة والشوفان والقمح سواء بالنسبة لهم، أما عن العدس فحدث ولا حرج. هم لا يعنيهم شيء سوى مغامراتهم والثياب الفخمة والعروض المسرحية، وطلب إرسال المال. لهذا هم شرهون. إنهم يحتاجون إلى خبير في التعامل معهم. يا عزيزتي، أنا أعرفهم جيدًا، وهذه ليست المرة الأولى التي أتعامل فيها معهم، ولهذا لن أرسل الضريبة، فلا حاجة إلى ذلك الآن.

قالت الزوجة محتجة:

- هكذا أنت دائمًا. عندما يكون الأمر لصالحنا تعارضه. تستكثر المال على بقرة ولهذا لا تريد أن ترسل أحدًا إلى المدينة.

- نعم أستكثره، أستكثره، ولهذا لن أرسل أحدًا.

- يا للأسف! لن ترسل بالطبع، فمن أجل من ستفعل ذلك؟ من أجل من تكوِّم المال؟

- كفاكِ، كفاكِ يا امرأة. أكره ذلك كراهية الموت.

وهنا بلا شك كان من الممكن أن يبدأ أحد المشاهد المنزلية التي ينفر منها نيكيتا فيدوريتش بشدة، لولا أن دخلت الغرفة فاطيمكا. لن يحول ذلك بيننا وبين أن نلاحظ أن وجه هذه الفتاة كان يشبه وجه زوجة الناظر بشدة، وكان هذا يُلاحظ بدرجة خاصة عندما توجدان في مكان واحد. كان الشبه بينهما دراماتيكيًّا كالشبه بين وجه نيكيتا فيدوريتش البدين ووجه ناظر تروسكينو. الملامح هي هي، بالرغم من فارق السن وخراج اللثة لدى آنا أندرييفنا. تمثل الفرق الوحيد في الأعين فقط؛ فلزوجة الناظر عينان رماديتان داكنتان، بينما لفاطيمكا عينان سوداوان كالفحم، ينبعث منهما الشرر. إلا أن من الضروري أن نعيد هذا الشبه بينهما إلى إحدى ألعاب الطبيعة، وذلك لأن فاطيمكا، أو كما يدعونها في القرية «جوريوشكا» لا تشبه نيكيتا فيدوريتش بأي حال من الأحوال.

سألها نيكيتا:

- ماذا تريدين؟

أجابت بخجل:

- جاء الطحان.

- آاخ! لقد نسيت تمامًا. حسنًا، حسنًا، قولي له إني سأقابله في المكتب بعد دقيقة.

قالت آنا أندرييفنا:

- ما الأمر؟

أجاب الزوج بصوت ناعم:

- لا بد أنه طلب للمساعدة يا عزيزتي. جاء لطلب العون للفلاحين.

غطى نيكيتا فيدوريتش بصخب شايه الذي لم يُنهِه، وتصفَّح التقويم، ونظر بطرف عينيه إلى زوجته المشغولة بالسماور، ثم ذهب إلى المكتب كما لو أنه مرغم على ذلك، مدمدمًا ومتمطعًا. إلا أن آنا أندرييفنا لم تغفل عن هذه النظرة الجانبية وحالة القلق التي اكتنفته، وتتبعت حركاته بريبة، وما إن أغلق باب الغرفة وراءه حتى اقتربت من ابنها، وربتت على رأسه، وقالت له:

- فانيوشكا، هل أنت حاذق؟

- نعم، أنا حاذق.

- أتريد السكر يا عزيزي؟

- أُغيد ([29]).

- اسمع يا روحي، سوف أعطيك الكثير من السكر. امضِ بهدوء وانظر ماذا سيعطيه الطحان من دون أن يراك أحد. هيا يا عزيزي اذهب، وماما سوف تعطيك الكثير جدًّا من السكر إذا رأيت فقط ماذا سيعطيه الطحان ولم تخبر بابا بشيء. هيا اذهب بسرعة، وسوف أعد لك السكر.

- أنتِ تخدعينني.

- لا يا روحي. انظر، أنا أضع السكر هنا، فور أن تعود خذ منه ما تشاء.

- لكنكِ لم تضعي سوى القليل.

- حسنًا، هاك قطعة أخرى.

- ضعي المزيد.

- كفى يا روحي، هكذا سوف تؤلمك بطنك.

صاح الطفل وهو يدق الأرض بقدمه:

- لا، ضعي المزيد، المزيد وإلا لن أذهب.

- حسنًا حسنًا، وها هما قطعتان أخريان. هيا امضِ، امضِ.

هكذا أجابت الأم وهي تنظر بخوف صوب الباب. انسل فانيوشكا من على مقعده، وسحب نفسه إلى خارج الغرفة، مستديرًا باستمرار إلى أمه التي ظلت تشير له بيد إلى الباب، وبالأخرى إلى السكر.

*****

قال الناظر، مقتربًا من الطحان، محدقًا في عينيه:

- مرحبًا أخي أكسينتي.

أجاب الطحان خافضًا رأسه:

- مرحبًا يا حضرة الناظر نيكيتا فيدوريتش.

- ما الأمر؟ ها؟

- جئنا نستعطفكم.

قال الناظر بحذر وقد جلس على المقعد الصغير:

- حسنًا، حسنًا بدأ الطحان حديثه، وقد بدا مرتبكًا، إلا أنه كان يلقي نظرة من طرف عينه إلى محدثه في كل مرة كان الآخر يهز رأسه فيها أو يرمش أو يلتفت إلى الجانب الآخر:

- يجب أن أعترف وأقول إنك تهينني بعض الشيء.

- كيف ذلك؟

- سأقول لجنابكم. في العام الماضي حينما أتيت للعمل بمطحنتكم اتفقنا على أن تتلقى مني 250 روبلًا. هذا ما اتفقنا عليه كي تطرد الطحان القديم. أنا لا أجرؤ على الجدال بشأن المبلغ، فكلي امتنان لعطفكم، ولكن بخصوص ذلك، أود أن تشملني بعطفك وتعفيني من الـ... من الخمر.

- إيه؟ إيه؟ إيه؟ أهذا ما جئت من أجله؟ (تحدث الناظر بلهجة إنسان ساخط على جحود شخص آخر) إيه؟ لقد سمحت لك ببيع الخمر في المطحنة، وآخذ منك مائة روبل وحسب، ولا تشعر بالرضا، وتقول إن هذا كثير؟! عسى أن تعرف - أنت يا صاحب اللحية الحمراء - حجم هذه البلية! ممنوع بيع الخمر في أي مكان خارج الحانات، لكني سمحت لك لطيبة قلبي ببيعها، وبعد كل ذلك تأتيني وتراوغ وتتلوى! لقد سمحت لك لتوِّي في هذا الربيع أن تأخذ خمسة

كوبيكات إضافية من فلاحينا مقابل نقل الطحين، فهل نسيت ذلك أيضًا؟ نسيت؟ ها؟.

- لا لم أنسَ ما فعله جنابكم يا نيكيتا فيدوريتش، أنا ممتن لك كثيرًا على لطفك معي لكن اسمح لي أن نكتفي حتى بمناقشة ما يتعلق بالمطاحن الأخرى في لولمتيفكو أو التي في يميليانوفكا، فلولا ذلك الأمر لما أزعجتك بكلمة واحدة. اسمح لي، كما يمكن لجنابكم طبعًا أن تروا، المكان هناك ملائم، والجزء الغالب من الناس هناك أحرار وأغنياء، ويريدون الخمر، أما هنا فالوضع ليس كذلك؛ الفلاحون فقراء وسيئون، وليس لديهم ما يشترون به الخمر، وأنا لست مضطرًّا لذلك يا نيكيتا فيدوريتش، فـ...

قال الناظر هازًّا رأسه:

- آه أيها المحتال، آه أيها المحتال، لماذا جئت إذن؟ أجئت لتتناول ديكًا روميًّا مثلًا؟ ها؟ تقول إنك لا تجني ربحًا؟! آه أيها الملتحي الشره، هل تود أن أشير لك إلى عشرين شخصًا في تروسكينو لا يفيقون من سُكرهم؟

- صحيح ما تقوله جنابكم، بالفعل يوجد من يشرب. المشكلة تنحصر في هذا الآخر الموجود في يميليانوفكا. لن أجادل جنابكم في الدفع، وأنا مستعد للدفع فورًا، ولكن الحق أني سأكون مستاءً بعض الشيء.

عارضه نيكيتا فيدوريتش ضاحكًا:

- كفاك أيها العجوز القبيح، لا تحاول خداعي يا أخي، هل جلبت المال؟

أجابه متبجحًا:

- المال موجود جنابكم.

- تقول إنك لا تجني فائدة، حسنًا، بكم تبيع الخمر؟

- عشرة روبلات ونصف.

سأله الناظر بخبث:

- وما مقدار ما تصبه مقابل هذا المبلغ؟

ابتسم الطحان، وحك رأسه وانحنى. واصل نيكيتا حديثه، وقد نهض من جلسته واقترب من الطحان:

- هيا قل لي، أخبرني.

وهنا أخرج خرقة من عبه تحوي مالًا، وبدأ يعد. في هذا الوقت صر باب المكتب. جذب نيكيتا فيدوريتش الطحان، وألقى القبعة على المال ليخفيه،

وهرع إلى الردهة الداخلية. عاد سريعًا، إلا أنه بدا قلقًا للغاية، فلم يجد أحدًا خلف الباب. قال، وقد دس المال في جيبه:

- هكذا أفضل. بالنسبة لموضوع الخشب المجاني فقد كتبت للسيد عنه، وقال إن الفيضان قد دمَّر السد، وسيرسل بالتأكيد إذنه بمنح الخشب المراد. أراضٍ أيها الملتحي؟

- شكرًا لجنابكم يا نيكيتا فيدوريتش. أنا مستعد لخدمتكم مقدمًا في أي شيء تريدونه.

- حسنًا حسنًا، سنرى ذلك.

قال الطحان ممسكًا بقبعته:

- نيكيتا فيدوريتش، لديَّ طلب آخر من جنابكم.

- ما هو؟

- لديكم فلاح هنا جنابكم يُدعى أنطون. أود لو تأمره بأن يسدد لي مالي، فمنذ الربيع طحنت له، ولم يسدد حتى الآن، وقد إلتقيتُ به في طريقه إلى السوق كما أمرته، ويبدو أن ذلك جعله يتواقح عليَّ عندما ذكَّرته بأمر المال. إنه فلاح شرير جنابكم.

قال الناظر سريعًا:

- حسنًا، حسنًا، لم أكن أعرف ذلك. لكنه لا يمكن أن يهرب لأي مكان. سيدفع كل ما عليه. يا فاطيمكا. (قالها ملتفتًا صوب الباب).

هرعت فاطيمكا إلى الداخل فقال لها:

- اذهبي حالًا إلى كوخ أنطون البعيد وقولي له أن يأتي إلى هنا.

عارضه الطحان قائلًا:

- لكنه لم يعد من السوق بعد. لقد عرجت عليه بالفعل.

- كيف ذلك؟ لم يعد حتى الآن؟ مر الأمس وأول أمس أيضًا. حسنًا، ربما هكذا أفضل. اذهبي إلى هناك واستدعي زوجته وأنا سوف أريها.

خرجت فاطيمكا راكضة.

- وأنت يا أكسينتي عُد إلى بيتك، وأنا سوف أحل الأمر.

إلتقى نيكيتا فيدوريتش في الردهة بفانيوشكا الذي كان يمص أصابعه الملطخة بالسكر. قال الأب حاملًا الطفل على يديه:

- وأنت أيها الناظر، هل تود أن تصير ناظرًا على تروسكينو؟

أجاب الصبي الصغير:

- أُغيد.

- هاهاها، وإذا صرت الناظر ماذا سوف تفعل؟

- سوف... سوف أجلد ميخيشكا كوزنيتسوف.

- هاهاها. حسنًا أيها الناظر، ولكن لماذا سوف تجلده؟

أجاب فانيا بصوت أخنف:

- عنده... عنده سبيكة رصاصية لا يريد أن يعطيها لي.

- هاهاها، تعالَ، تعالَ احكِ لماما عن ذلك. آنا أندرييفنا، يا آنا أندرييفنا، اسمعي ما يقوله ابننا الصغير. هاهاها، قل يا فانيا لماما لماذا تود أن تجلد ميخيشكا كوزنيتسوف.

ولكن الأمر الذي أدهش نيكيتا فيدوريتش إلى أبعد حد هو أن زوجته لم تُبدِ في هذه المرة أي اندهاش حيال حدة ذهن طفلها الحبيب، بل إنها عدلت بغضب الوشاح الذي ربطت به وجنتها المتألمة، وقالت لزوجها بجفاف:

- كفاك هراءً وقُل لي لماذا جاء إليك الطحان؟

- ما بكِ يا امرأة صرت نافدة الصبر هكذا؟ لقد تضرر السد، والفلاحون طلبوا أن... أظن أني أخبرتك بذلك من قبل بالفعل.

صاحت وهي تشيح بذراعيها بغضب:

- آه يا عديم الضمير، آه يا عديم الضمير، أهكذا؟ أتريد أن تخدعني؟ تظن أنني لن أعرف أنه أعطاك مالًا؟ أتخفي ذلك عني يا نذل؟ أنسيت من هو سبب نجاحك وسط الناس؟ أنسيت من جعلك تجني ربحًا ومن جعلك إنسانًا محترمًا؟

صاح نيكيتا فيدوريتش بدوره، وقد تقدم عدة خطوات صوب زوجته:

- ما كل هذه الجعجعة؟ اخرسي، لقد رحل السيد العجوز، وأنا الآن سيدك وزوجك. لن أقبل مزيدًا من الهزر. انظري إليَّ، نعم لقد أعطاني مالًا، واعلمي أني لن أريه لكِ، ولا أريد التحدث عنه، ولن أعطيكِ كوبيكًا واحدًا، ولا تصيحي.

صرخت آنا أندرييفنا محتجة، وقد استلقت على الأريكة:

- لص، تريد أن تدمرني! تريد أن تطعني وتسرقني! ألست زوجتك أيها العبد اللعين؟

دخلت فاطيمكا الغرفة قائلة:

- لقد جاءت فارفارا.

وعندما سمعت عواء آنا أندرييفنا، توارت سريعًا في أحد الأركان، ولاح من حركتها الأولى أنها ودت لو تندفع نحوها ولكن نظرة نيكيتا فيدوريتش ألجمتها. خفضت عينيها المليئتين بالدموع، واندفعت إلى الردهة الداخلية. خرج الناظر من الغرفة، وصفق الباب بعنف خلفه. وقفت فارفارا في الردهة ترتعش من فرط الخوف، وقد غطت وجهها بكم قميصها الممزق، وكانت تنشج بشدة. بعد أن سمعت خطوات نيكيتا فيدوريتش، أبعدت يدها عن وجهها على الفور، وانعكست على وجهها آثار يأس عميق، ومدت ذراعها وارتمت صارخة عند قدميه:

- يا سيد، يا سيد، لا تهلكنا.

وأخذت تكرر باكية، وقد سقت الأرض القذرة وحذاء السيد بدموعها:

- لا تهلكنا، لدينا أيتام بائسون.

قال نيكيتا وهو يزيحها بقدمه:

- ابتعدي عن هنا.

أشار لها إلى المكتب، ودخل كلاهما. كانت فاطيمكا قد اختبأت في أحد الأركان المظلمة من الردهة، وظلت تراقب المشهد بخوف، ولكن ما إن تلاشت فارفارا عن نظرها حتى فزَّت من مكانها كالقطة، وأسرعت إلى باب المكتب وراقبت ما يحدث في الداخل من ثقب الباب. كلما تعالى صوت نيكيتا فيدوريتش أكثر، ازداد شحوب الطفلة وارتجفت؛ الأمر الذي عكس مدى اضطرابها الداخلي، وأخيرًا ارتجف جسدها كله دفعة واحدة وتراجعت، وانحدرت ثلاث دمعات من عينيها، ووضعت يدها على صدرها لتلتقط أنفاسها المحشورة في حلقها، وتركت الردهة مجددًا وقد تملكها اليأس، وخفضت ذراعيها واندفعت بأقصى سرعتها إلى الفناء. سارت حول الجناح الخارجي ثم تسلقت السياج مجددًا لتجد نفسها في بساتين الفلاحين، ومن هناك انطلقت مباشرة نحو أطراف القرية. كان هناك حشد من الفتية والفتيات عند الأكواخ البعيدة، خلف مخازن الحنطة، وبين الأسوار المتساقطة، وما إن رأوها حتى صاحوا فيها بصوت واحد: «تعالي يا جاريوشكا ([30])، جاريوشكا، جاريوشكا».

هنا بدت فاطيمكا كما لو أنها استجمعت قوتها الأخيرة، وانطلقت كالسهم، وهي تشوح بذراعيها في يأس وتصرخ لاهثة: «مصيبة حلت على فارفارا، يضربونها، يضربونها».

في اللحظة ذاتها يتعالى صياح طفولي: «آه يا ماما، ماما، ماما»، وفي الآن ذاته تندفع من وسط الفتيان والفتيات طفلة عرجاء حمراء الوجنتين يعرفها القارئ بالفعل، وتتجه صوب فاطيمكا، وتلف على ساق واحدة صائحة: «جاريوشكا، جاريوشكا». قالت الأخيرة، وهي تمسكها من يدها، وتسرع بها صوب أكسيوشكا وفانيوشكا ابنَي أخي أنطون: «فانيا، أكسيوشا»، وواصلت وهي تمسك بأيديهم: «مصيبة، مصيبة وحلت على العمة فارفارا، مصيبة، هذا الثور يريد أن يرسل عمكما إلى مكان ما. لقد سمعت، سمعت كل شيء، ورأيت كل شيء من ثقب الباب. لا تصيحا لئلا يسمعوا شيئًا... إنهم يسمعون كل شيء».

قالت كل ذلك بحيوية غير عادية، وكانت وجنتاها متقدتين، ومع كل كلمة كانت تُلوِّح بذراعيها، وتعدل من وضع خصلات شعرها الطويلة السوداء التي كانت تسقط على وجهها بين الحين والآخر. وضعت أكسيوشكا كفها على فمها، وكلما حاولت كبح بكائها، ازدادت بكاءً. تمتم فانيوشكا: «آه يا عم أنطون، آه يا عم أنطون، لم يكن يضرب العمة فارفارا».

قالت فاطيمكا فجأة، وقد استقامت وسط الجماعة:

- اسمعوا، اسمعوا يا فانيا وأكسيوشكا والجميع، الجميع، اجروا إلى هناك، وخذوا حجارتكم معكم، ولنقذفها على النافذة وسأريكم ماذا سنفعل به. سوف نخيفه، من منكم ماهر في التصويب؟

تعالت صيحات رقيقة من وسطهم: «أنا، أنا، أنا»، ولوحت أذرع نحيلة في الهواء. لكن أعلى الأصوات كان صوت أنيوتكا العرجاء التي أخذت تجرجر نفسها حول فاطيمكا: «أنا، أنا يا جاريوشكا، أنا».

- كفاكِ يا حمقاء، وقحة، اخرسي.

- سوف أذهب. أنا ماهرة في التصويب.

هكذا ظلت أنيوتكا تصيح، مجرجرة نفسها بسرعة، باكية. وبدأت فعلًا تجمع الحجر، لكنها لم تقوَ على ذلك، وانفجر فانيوشكا في البكاء مجددًا. قالت فاطيمكا وهي لا تزال مضطربة:

- اهدأ يا فانيا، اهدأ، سوف نذهب إلى هناك بسرعة. الحجارة كثيرة هناك عند السياج. أسرعوا، أسرعوا وإلا تأخر الوقت. فلنزحف إلى هناك حتى لا يرونا. أسرعوا، أسرعوا.

كانت أنيوتكا العرجاء على وشك أن تقفز مجددًا، لكنها وجدت في هذه المرة السباب والتعنيف ينهالان عليها من كل صوب، ومن ثَم استلقت قسرًا على الأرض، وأخذت تزحف خلف الجميع على بطنها بطول السياج. في هذا الوقت كان نيكيتا فيدوريتش قد صرف زوجة أنطون من فترة طويلة. أما الفلاحات اللاتي أخذن يراقبنها من النوافذ وهي تمر بالقرية فقد توقفن عن الحديث عن هذا الأمر، وانتقلن إلى موضوع آخر. كان نيكيتا فيدوريتش في هذا الوقت يتسكع بجوار المكتب، شابكًا يده خلف ظهره، حانيًا رأسه، وبدا أنه مستغرق في تفكير مرير ومقلق ما فعلته آنا أندرييفنا كدَّر نفسه الرقيقة أخيرًا بدا كما لو أنه قد عزم أمره على نية ما وضرب بيده على سترته ورفع رأسه وتوجه صوب الباب. في هذه اللحظة تحديدًا تعالى صوت الإطار العلوي للنافذة وتفتت، وسقطت عدة قطع حجارة صغيرة بالقرب من أنفه تقريبًا. ذُهل نيكيتا فيدوريتش، فمن دقيقة كان واقفًا في المكان كما لو أنه أساسه وعمدته، ثم أسرع بكل قوته إلى الردهة، متخبطًا من ركن لركن، واختبأ في إحدى الزوايا كالمجنون، وصاح بأعلى صوت:

- إييييه؟ من هناك؟ ستيان! دورميدون! إيه يا فاطيمكا! أيها الملاعين!

لم يجبه أحد. توقف نيكيتا فيدوريتش، وأخذ ينصت مستمعًا. هدأ اضطرابه تدريجيًّا عندما اقتنع أنه لم يكن هناك أحد من حوله. خرج من الردهة بحذر، ثم دار حول البناية بمزيد من الحذر ولم تخلُ نظرته من اضطراب يشبه الخوف بعض الشيء عندما نظر من خلال السياج. لكن كم كانت دهشته عندما رأى طفله! صاح مهددًا:

- أنت من ألقيت الحجر إذن! انتظر، سأريك ما سأفعله بك لتعرف كيف تلقي الحجر على النافذة ثانية، تعالَ هنا.

أجاب ابن ناظر تروسكينو وقد هرع صوب أبيه:

- لا يا بابا لا، الصبية هربوا حالًا، وهم من ضربوا النافذة بالحجر. لقد رأيتهم.

- أي صبية؟

- القرويون، أعرف من ألقى بالحجر يا بابا. لست أنا، لست أنا.

- من إذن؟

- لست أنا. إنه فانيوشكا أنطون، لا يا بابا، لقد رأيته بعيني.

- آاخ! حسنًا، إيه إيه إيه! هو إذن! جيد، سأعالج الأمر حالًا. هيا يا فانيوشكا ادخل. الجو هنا بارد.

بعد أن قال نيكيتا فيدوريتش ذلك طرح ذراعيه السمينتين على السياج، وأمسك ابنه ورفعه فوق كتفيه، ثم توجه إلى المنزل وقد بدت عليه البهجة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

-9-

العودة

ظل أنطون يركض هنا وهناك لثلاثة أيام، باحثًا عن جواده بلا جدوى. لم يظهر الجواد في أي مكان. من فرط حزنه لم يلحظ أنطون المطر المثلج الذي انهال على رأسه ما إن ترك المدينة، بل إنه في حقيقة الأمر لم يلحظ الإنهاك ولا البرودة ولا الجوع ظل يتخبط كالثمل من قرية لقرية، من دون معطف أو حزام أو قبعة، فقد ضاع منه الأخيران في مكان ما ليلًا، يسأل كل من يلتقيه في الطريق عن جواده الأرقط لم يعرف أحد شيئًا عنه، ولم يجبه أحد حتى إجابة واضحة منهم من ابتعد عنه لضيق الوقت، ومنهم من تخلص منه بإرساله بعيدًا بلا مبالاة، ومنهم من أجابه بسخرية على حالة ذهوله وحديثه غير المرُتَّب لكن يلزم القول إنه بالرغم من ذلك، حتى لو كان أنطون قد عثر على سارق الجواد، فلم يكن حظه ليصير أفضل من ذلك، لأنه لم يكن بحوزته أي مال. كان الفلاحون الذين ودَّعوه عند بوابة مدخل النُّزُل محقين تمامًا عندما أجمعوا بصوت واحد على الآتي: «لن يجد الجواد، فما دام ليس معه مال سينهك المسكين نفسه بلا جدوى».

في النهاية توقف أنطون عن بحثه عن الجواد، وقد امتلأ بيأس أبكم تزايد في داخله تدريجيًّا حتى أحرق قلبه وضبَّب عقله، ومن ثَم توجه إلى منزله. عندما وطئت قدماه أرض تروسكينو كانت ليلة مضطربة، وكان في ساعة متأخرة من الليل، وكانت ليلة من تلك الليالي الخريفية البغيضة التي يشعر فيها المرء بالكآبة والحزن لسبب غير مفهوم، حتى لو كان تحت سقف دافئ، وحتى لو كان جالسًا بالقرب من موقده المحبب. ضربت ريح ثلجية عنيفة وجه أنطون، وفي كل دقيقة كان يجد مياهًا باردة تنهال على رأسه وتتدفق على أطرافه الهزيلة، وكان المسكين يسقط بين الحين والآخر في حفر عميقة مليئة بالماء، أو يعلق في الأرض التي صارت كتلة من الطين بفعل المطر الغزير زاد الضباب الكثيف من عتمة الليل، ولم يكن بوسعه أن يرى ما أمامه على بُعد خطوتين، ومن ثَم كان يحاول تلمس طريقه أحيانًا. بعدما هبت الرياح بقوة ثم انقطع هزيزها لبرهة، امتلأ المكان من حوله بضجيج غير منتظم، نتج عن هطول المطر وتدفق المياه التي أخذت تجري على طول الطريق الريفي بدا كما لو أنه لا توجد بقعة واحدة في هذا العالم في تلك اللحظة يمكن للشمس فيها أن تشرق وتبعث دفئها في إنسان. مع كل خطوة كان يخطوها للأمام كانت نفسه تزداد كآبة أكثر فأكثر. سرعان ما شعر أنه قد وصل إلى منحدر الجبل الذي صعده منذ خمسة أيام على صهوة جواده. ومضت الذكرى في

ذهنه ضبابية كما لو أنها حلم. أبعد خصلات شعره المبللة عن وجهه بذراعيه المرتجفتين، ثم نظر بعينيه الملطختين إلى القرية وحث الخطى.

مر بعض الوقت بهذه الطريقة حتى وجد نفسه في منتصف الشارع. لكن المكان هنا كان كئيبًا أيضًا مثلما كانت الحال في بقية الأماكن، فقد دمجت الظلمة كل شيء في كتلة واحدة ليست لها معالم؛ كتلة سوداء، ولم يكن هناك صوت سوى وقع الماء المتساقط من الأسطح المصنوعة من القش على الأرض المبللة. مد أنطون عنقه وواصل السير، مسرعًا أكثر فأكثر. فجأة تردد وسط عواء الجو القاسي صوت طرق مدويًا على لوح حديدي. ارتجف قلب الفلاح. توقف كمن انغرس في مكانه ورفع رأسه؛ وجد أمامه جناح السيد القديم الذي صار الآن مكتب وسكن الناظر. في الوقت الذي كان يحاول فيه أن يتذكر كيف وصل إلى هنا، تناهت إلى أذنيه خطوات أقدام من الجانب، وفي هذه اللحظة بالذات تعالى صياح صوت فظ وأجش: «من هناك؟». بدا الصوت مألوفًا لأنطون، ووجد نفسه يخطو عدة خطوات للأمام تلقائيًّا.

- أي شيطان أتى بك إلى هنا؟ من هناك؟

ازداد الصوت اقترابًا منه، ورأى أنطون أمامه شخصين يمسك كل منهما بهراوته. كرر أحد الحارسين بصوت أعلى من السابق، وهو يضرب الأرض بهراوته:

- لماذا لا ترد أيها اللعين؟ هل أنت أصم؟ ألم تسمع سؤالي؟

صمت أنطون، مجففًا رأسه المبتل بيديه. صاح الحارسان في صوت واحد وهما يندفعان إليه:

- قف.

استسلم أنطون لهما من دون أي مقاومة. سأل بصوت خافت:

- هل الناظر موجود في منزله؟

لكنه ما إن نجح في التلفظ بهذه الكلمات حتى تركه أحد الفلاحين اللذين أمسكاه، وقال لرفيقه ضاحكًا:

- أيها العم دوروفي، انظر، إنه أنطون.

- فعلًا؟

- هو بشحمه ولحمه، وحق المسيح هو.

صاح دوروفي وقد حرر أنطون من مسكته وقد بدأ يتعرف عليه:

- آه أيها اللعين، ما الذي أتى بك إلى هنا بحق الجحيم؟ ماذا بك؟ هل جننت؟ تسير بلا قبعة في مثل هذا الطقس! وما الذي تريده من الناظر؟ هل أتيت من المدينة أم ماذا؟

قال أنطون وجسده كله يرتجف:

- أتيت من المدينة.

- آخ! لقد كان الناظر يبحث عنك، ولكن انتظر يا أخي، سوف يبحث عنك مجددًا. يبدو يا فيدكا أنه تدحرج إلى هنا من الواضح يا فيدكا أن الخمر كانت جيدة حتى إنه لم يعد قادرًا على الحركة من فرط السُّكْر آه أيها العابس! (واصل دوروفي وهو يدفع أنطون من جانبه) هل تعرف ماذا حدث في غيابك؟ ها؟

- ماذا؟

- ماذا تتوقع؟ ها؟ انظر إلى لسانك، يبدو مثل قطعة غارقة في الوحل، وتسأل أيضًا «ماذا؟» عد إلى منزلك وسيخبرونك «ماذا؟». لقد دعا نيكيتا اليوم زوجتك على الغداء. هاهاها، انظر إليه، الشيطان كان يعبث في المدينة ويسكر ثبِّت رأسك على كتفيك أيها الشيطان العجوز، عد لمنزلك ولا تقف في هذا المطر.

- آه أيها اللعين، انظر ماذا سوف يحدث لك غدًا ألا يمكنك قول شيء؟ هل ثملت تمامًا؟ أنطون، أنت أيها اللعين.

- ها؟

صاح دوروفي وفيدكا فيه بكل قوتهما، وقال الأول ممسكًا إياه من ذراعه:

- اسمع، كفاك تسكعًا وعُد إلى منزلك. هيا عُد حالًا. أتسمع ما نقوله لك؟

لكن أنطون لم يسمع شيئًا. في النهاية أزاح الحارسين بخبل وجر نفسه سريعًا صوب ضواحي القرية. ظلا يصيحان في إثره:

- أنطون، أنطون، لقد جن فعلًا.

وقال درورفي:

- ماذا أصابه؟ لقد ضاع الحق أن الجميع هنا على الحال ذاته، شيطان لا بد أنه بدد ماله أتعرف يا فيديوخا، لم يكن يصل إلى مثل هذه الحالة من قبل، أسمعته؟ يريد أن يقابل الناظر في مثل هذا الوقت! سوف يعنفه الناظر. لنذهب يا فيديوخا، لقد ابتَللت، أكاد أتجمد هنا. لنذهب.

- لنذهب أيها العم دوروفي. دعنا نطرق اللوح مجددًا وبعدها ننام. البرودة مريعة.

بعد ذلك بقليل تعالت أصوات الطرق الحادة على اللوح الحديدي، وترددت في المكان لتغطي لبرهة على هزيز الريح وضجيج العاصفة التي بدا أنها تزداد أكثر فأكثر بمرور الوقت. في هذه الأثناء واصل أنطون الهرولة كالمجنون. ما إن تخطى الأكواخ الأولى حتى انعطف بحدة صوب البساتين وسار في الجزء الخلفي من القرية. هنا صارت خطواته أكثر تصلبًا وبطئًا. عندما وصل إلى هذا المكان الذي إلتقط منه منذ بضعة أيام وشاحًا شعر فجأة أن أحدهم مر بالقرب منه في الطريق. توقف ونظر صوب هذه الناحية. في هذه اللحظة شقت عاصفة من الريح السحابة وأنار ضوء شاحب هذا الجزء من الأرض. ميَّز أنطون تلقائيًّا في هذا الضوء الشاحب الذي ألقته السماء على هذه البقعة وجه العجوز. كانت محنية الظهر بشدة، تمشى ببطء، تُلوح بعكازها المعقوف، وتتلمس به الطريق. أدرك أنطون أنها أرخاروفنا. اندفعت إلى رأسه على الفور كل الشائعات والحكايات عن ثروتها، ومن ثَم خطر له أنها قد تستطيع أن تساعده. بمرور ثوانٍ بدأ يلاحق المتسولة وصاح فيها بصوت لاهث:

- ساعديني إذا أردتِ أن تنقذي روحًا مسيحية من الخطية. أعطيني مالًا.

لم تقل المتسولة سوى:

- عزيزي، عزيزي، فليكن المسيح معك. كم أنت عزيز عليَّ يا أنطون بروخوريتش! أي مال لديَّ لأعطيك؟! فليكن المسيح معك.

- بل لديكِ. الجميع يقولون ذلك.

صاحت العجوز:

- ماذا أصابك؟ انظر كم تسلك بغرابة! تبدو كما لو أنك تريد أن تضربني! فليسامحك الرب! إني أخفي بعض المال في بستان شجر البتولا مدفونًا في جرة.

صاح الفلاح:

- فلنذهب إلى هناك. هيا أسرعي.

عدلت المرأة وضعها، واستندت إلى عكازها وانطلق كلاهما بخطوات سريعة على طول الطريق المؤدي إلى البستان.

ظلا يسيران سريعًا بامتداد الطريق، ولكن ما إن انعطفت العجوز إلى إحدى الأراضي الزراعية حتى واجه أنطون صعوبة في اللحاق بها. ازدادت حلكة الليل، والمطر الذي كان قد خف لبرهة انهمر فجأة بقوة جعلته غير قادر

تقريبًا على تمييز رفيقته في الطريق. عَلِقت كتل ثقيلة من الأرض الطينية بأقدامهما؛ الأمر الذي زاد من صعوبة السير، ومن حين لآخر كانا يتوقفان ليلتقطا أنفاسهما. أخيرًا قادته العجوز إلى بقعة عميقة كانت مياه الأمطار تتحرك بشكل دائري حولها، ولاحت من كلا جانبيها تجاويف سوداء كبيرة ذات أطراف كبيرة، وامتدت في بعض المواضع شجيرات كثيفة شكلت جدارًا حول المكان، كما تناثرت هنا وهناك جذوع أشجار بتولا، وبدت كالأشباح وقد مدت أغصانها الحادة النحيلة. بمرور الوقت كان الطريق يزداد صعوبة، حيث تصطدم الأقدام بالحجارة أو تنزلق في الوحل، وأحيانًا كانا يصطدمان بأكوام كاملة من الأغصان التي كسرتها الرياح وملأت بها المكان. كفيلق كامل من الأرواح اجتاحت الريح قمم الأشجار بضربة واحدة، وقد مزقت ملايين الأوراق والغصون، ثم عادت فجأة، كما لو أنها اصطدمت في طريقها بعائق ما، بقوة مضاعفة إلى الخلف، وقد غطت الأرض بكتل من الأوراق المبللة. توقف هدير العاصفة لبرهة، وتعالت مجددًا دمدمة الجداول وعزف المطر المتماثل الذي كان يتساقط في شرائط من الأشجار ويسيل على الطريق. قالت العجوز:

- انتظر هنا يا عزيزي، لنلتقط أنفاسنا. لا يزال يتوجب علينا أن نهبط إلى الوادي.

توقف أنطون في صمت. في الحقيقة لم ينتظرا إلا قليلًا، ثم بدآ يهبطان منحدرًا صخريًّا شديدًا صوب الوادي. ما إن أتما هبوطهما حتى رفع أنطون عينه، ونظر إلى حواف الوادي عالية في السماء إلى درجة أنه كان من الصعب أن يتبين حدودها. اضطر أنطون أكثر من مرة إلى أن يزحف أسفل غصون الشجر التي تناثرت هنا وهناك في هذه الهاوية المملوءة بالحجارة في كل مكان. كان من الواضح أن العجوز تعرف الطريق جيدًا، فهي لم تتعثر أو تزل قدماها لمرة واحدة، بل كانت تسير بحيوية أكثر من ذي قبل، ولم تعد تستند تقريبًا إلى عكازها المعقوف. بعد أن وصلت أخيرًا إلى غابة كثيفة من الشجيرات بدا الخروج منها أمرًا غير محتمل، وبصحبتها أنطون، توقفت فجأة ثم اندفعت إلى الأمام صائحة بصوتها الأجش:

- يا رفاق، هنا يا أعزائي.

لم يكد أنطون يحاول استجماع شتات نفسه حتى وجد نفسه بين أيدي شابين قويين بالفعل. اندفع للأمام مدفوعًا بشعور حفظ الذات الغريزي، لكن الأيدي الحديدية تشبثت به جيدًا، وأعاقته عن الإفلات منها، وسرعان ما أعادته إلى مكانه. قال أحدهما:

- إلى أين؟ إلى أين؟ لا يمكنك أن تغادر. سوف تنتظر هنا.

قالت العجوز:

- انتظر يا عزيزي يرمولايوشكا، ترفق به، إنه أخوك أنطون. آه، إنه هائج حقًّا. أعطه بعض المال.

ما إن سمع يرمولاي هذا حتى تراجع صائحًا:

- أنطوشكا! أهذا أنت؟

لكن قبل أن يجيب أنطون بشيء اندفع الآخر صوبه ووضع يديه على كتفيه ونظر إلى وجهه مباشرةً، ثم وضع قبضتيه على جانبيه وانخرط في ضحك عالٍ:

- أنطوشكا! يا عفريت! أي شيطان أتى بك إلى هنا؟ بيتروخا، اتركه، فهو لن يهرب. إنه أخي.

حدق بيتروخا في وجه الفلاح، وأطلقه في الحال، لكنه قال لرفيقه بفظاظة:

- حسنًا، حتى لو كان أخاك. إذا كان قد جاء إلى هنا ليستكشف الأمر، فالكل سيعرف.

واصل يرمولاي ملتفتًا صوب أخيه الذي لم يتحرك من مكانه:

- لماذا أنت صامت كجذع شجرة مقطوعة؟ لماذا جئت إلى هنا؟ ماذا تريد منا؟ تكلم، تكلم أيها الشيطان، هل شقوا لك حلقك في القرية؟

انحنت العجوز وإلتقطت شيئًا ما من الأرض قائلةً:

- دعه يستجمع قوته يا عزيزي، من الواضح أنه مرتاع. لقد جئت لتوِّي من قريتك تروسكينو يا عزيزي.

سأل بيتر ويرمولاي بصوت واحد:

- وماذا فعلتِ؟

أجابتهما بصوت خافت:

- إلتقطتُ دجاجتين من أحد الفلاحين (ثم واصلت بصوت أعلى) كنت سائرة في طريقي وإذا به يعترض طريقي ويقول: «أعطيني مالًا» وما شابه ذلك.

صاح يرمولاي:

- إيه؟ من الواضح كم أنت متعوس! أجئت لتخبرنا بأن الفطائر بزيت البتولا لا تعجبك؟ أليس لديك فعلًا ما تقوله؟ ألست سعيدًا بلقائنا؟

تمتم الآخر مقتربًا من الفلاح:

- سواءً أسعده اللقاء أم أتعسه، لن أسمح له بمغادرة المكان.

بدأ أنطون يتحدث فجأة، كما لو أنه استيقظ من نومه:

- أيها الإخوة، إني في حاجة إلى المال. لقد سرقوا مني جوادي، جوادي الأخير. (أضاف بصعوبة) ليس لديَّ ما أدفع به ضريبة الرأس.

- أهكذا الأمر؟ لقد سمعت عن ذلك فعلًا.

قالت العجوز:

- دعه ينصرف في سلام يا عزيزي. لقد أرسله الناظر لـ...

سأل يرمولاي:

- هل طفلاي على قيد الحياة؟

أجاب أنطون بكآبة:

- نعم أحياء وبخير. (ثم أضاف بصوت يائس) ساعدوني أيها الإخوة وأعطوني بعض المال.

- لقد جئت إلى هنا وفي نيتي أن أقضي نحو ثلاثة أسابيع، فقد شعرت بالاشتياق للعودة. تبين أن الأمر شديد الصعوبة، واضطررت للبقاء فترة الشتاء. لولا ذلك كنت قد زرتك، فقد أردت أن أرى طفليَّ، وقد ماتت أمهما الطيبة. ماذا تريد إذن يا أنطونوشكا؟ لماذا جئت إلينا؟

- سرقوا جوادي الأخير. ليس لديَّ ما أدفع به ضريبة الرأس. أنا في حاجة إلى المال.

- أووف! يمكننا أن نساعدك، ولكن الأمر وما فيه أن النقود التي عندنا - كما ترى - ليست نقودنا ولا نقود غيرنا الأمر ببساطة أنها الآن في جيوبنا، ومن ثَم صارت لنا! ما حدث أنها كانت لدى هذا التاجر الذي جاء من السوق، وقد وضعها في عبه. قلنا له: تبدو طيبًا، لذا قاسمنا النقود، لكنه رد علينا بالصياح في وجوهنا، وهددنا باستدعاء الشرطة، ورمى النقود ومحفظته في وجهنا، وهرب سريعًا. لكنك الآن معنا، وقد عرفت كل شيء. يمكننا أن نساعدك، ولكن هذه هي المشكلة كما حكيت لك لم يرَ التاجر وجوهنا، ومضى بزلاجته بعيدًا، وبهذا لن يعرف أحد شيئًا إذا حفظت السر ولم تثرثر سوف نذهب الآن إلى الحانة معًا، وهي ليست بعيدة عن هنا، وهناك سوف نعطيك ما يمكنك أن تحل به مشكلتك ثم نتفرق؛ كل إلى حال سبيله. ماذا فعلت يا أنطون؟ هل ذهبت إلى ذلك الضارب إلى الحمرة في قرية بوريسكي؟ وهل شربت عنده؟

- لا.

- أهذا يعني أن الضارب إلى الحمرة لا يعرفك؟

- لا يعرفني.

- حسنًا، لنمضي، أما أنتِ يا عمة فانتظرينا هنا.

- حسنًا يا عزيزي سوف أنتظركم. ولكن أبقِ عينك عليه يا عزيزي ولا تدعه يغيب عن نظرك.

- لن يرحل. هيا يا رفاق دعونا نمضي. هيا يا أنطونوشكا، ولتتذكر بحق المسيح ما اتفقنا عليه، ولا تجلب المشكلات.

شربوا جميعًا مقدار شتوف، ورفعوا الهراوات، وهمسوا بشيء للعجوز، وجعلوا أنطون يتقدمهم، وبدأوا يشقون طريقهم للخروج من الوادي.

كانت الحانة التي توجهوا صوبها موجودة وحدها عند تقاطع طرق، بين طريق رئيس وطرق ريفية ضيقة وعميقة. بعد أن انعطفوا مرتين أو ثلاثًا تلاشى الطريق الريفي وسط الحقول السوداء والأراضي البور التي تغطي كل الأماكن وتشغل مساحة لا يحدها البصر. لم تنعش أبصارهم شتلة واحدة، فقد كانت تلك البقعة جرداء تمامًا، وكان من الصعب أن يجد المرء بقعة جرداء بدرجة أكبر من هذه في جميع المناطق المتاخمة. اتسق شكل بناية الحانة بأقصى درجة ممكنة مع المنظر الحزين لكل ما حولها. تألفت الحانة من كوخ قديم مؤلف من طابقين، ذي سطح عالٍ، تخطط كل أجزائه الطحالب الخضراء الداكنة والشقوق الطويلة. برزت شجرة صنوبر حمراء جافة بدت غصونها الذاوية وكأنها تطلب العون. كانت جدران الكوخ قاتمة وكئيبة، كما كشفت الفجوات الرمادية والمتسخة بين العوارض عن أن الطحالب العالقة كانت متعفنة منذ فترة طويلة. أما الشرفة الخارجية الجديدة المصنوعة من شجر الصنوبر، والتي تم تركيبها عند مدخل الكوخ، بيَّنت بدرجة أكبر مدى تداعي الكوخ. بدا منظر كل من الأعمدة الأنيقة الناعمة والمظلة البيضاء اللامعة والمزينة والدرابزين الدقيق اللعين متعارضًا بحدة مع بقية أجزاء الحانة؛ الأمر الذي كان يُذكر الرائي تلقائيًّا باقتران قبيح بين عريس عجوز بعروس شابة يافعة. شابهت البناية بقية البنايات من حيث إنها أُحيطت بستائر مسدلة من ثلاثة اتجاهات؛ الأمر الذي كشف عن أن ضيافة صاحب الحانة لم تقتصر على تقديم الخمر الذي يُجفف الحلق وحسب. احتوى الكوخ على نُزُل للمبيت أيضًا، ومن ثَم اقترنت الفائدة بالمتعة.

بهذه الطريقة كان المار أو الحوذي بدلًا من أن يشرب ربع لتر فودكا واحدًا ليستجمع قوته، يزيده بربعين آخرين؛ واحد منهما يطلبه بعد العشاء، والآخر قبل أن يغادر في الصباح.

مع انقشاع ظلمة الليل، يلوح للأبصار السطح الأسود العالي للحانة، وأشجار الصنوبر المتناثرة التي قضت الغربان ليلتها على غصونها، أوضح أكثر فأكثر على خلفية السماء الغائمة الرمادية. لف السكون التام المكان حول الحانة. بالرغم من ذلك، مع ضوء الفجر، لاح نور شمعة من إحدى نوافذ الطابق السفلي، وبدت أنها لا تزال تومض بخفوت عبر الضباب. بقليل من الانتباه يمكن حتى للمرء أن يميز بوضوح ظلًّا طويلًا لإنسان يذرع الكوخ ذهابًا وإيابًا. سرعان ما توارى هذا الظل. لاح حينها في الشرفة الخارجية رجل طويل القامة يرتدي سترة طويلة وفرو ثعلب. في البداية انحنى على الدرابزين، ووضع راحة يده على جبهته كمظلة، وظل يبحث بعينيه طويلًا عن شيء على الطريق الواسع، ثم لاحت منه حركة تنم عن نفاد الصبر، ومن ثَم هبط من الشرفة إلا أن عدم الرضا بان عليه بعد أن وقف لبرهة من الوقت، ولوَّح في النهاية بيده بانزعاج وصعد درجات الشرفة مجددًا لا بد أنه بتأثير الانتظار نافد الصبر، وعدم ثقته في يقظته في المحاولتين السابقتين، جلس على السلم ووضع راحة يده مجددًا كمظلة على جبهته وظل يحدق مجددًا في السديم الضبابي المعتم الذي لف المكان.

ولكن ها قد تعالى الضباب، وعكست الأخاديد العميقة للطريق، المليئة بالمياه، شروق الشمس، وهو لم يزل في مكانه، ولم يُنحِّ عينه عن الطريق سواء سرى نسيم على الأرض الرطبة أو ظهر سرب من الغربان في الهواء، كان يرفع رأسه سريعًا وينصت بدا أن صبره أخيرًا قد نفد. هب على قدميه ودخل الحانة سريعًا. رأى في الداخل كالمعتاد بائع الخمر الضارب إلى الحمرة مستلقيًا على ظهره بين برميلين، مفترشًا الحصر. في الزاوية غط رجلان في النوم على الأرض، وصبي في الثالثة عشرة يعمل لدى صاحب المكان. كان الباب على يسار الحانة مغلقًا بقفل. مر الرجل ذو السترة الطويلة بالردهة الداخلية للمكان على عجل، ثم انعطف إلى اليمين. من الواضح أنه كان منزعجًا بشدة. امتزج الضوء الخافت للشمعة الموشكة على الانطفاء بضوء الصباح الأبيض، مما ألقى وميضًا أزرق داكنًا على وجه بضعة فلاحين نائمين على التبن. بالقرب من الطاولة المغطاة ببقايا عشاء الفلاحين جلس رجل ملتحٍ على مقعد، وقد أرخى رأسه على صدره، يمكن للمرء بسهولة أن يعرف من ثيابه أنه تاجر. أسند يد إلى الطاولة والأخرى إلى المقعد، وتعالى شخيره في الكوخ بأكمله. اقترب منه الغريب وأزاح يده، ففقد التاجر توازنه وتهاوى على مقعده، وتعالى شخيره أكثر. قال الغريب بانزعاج وهو يحاول إيقاظه:

- ماتفي تروفيميتش، ماتفي تروفيميتش، استيقظ، ألم يحن الوقت؟ هيا استيقظ.

- إمممم! ما الأمر؟ هل وصل أخوك؟

- من الذي وصل؟ اسمع يا ماتفي تروفيميتش، لا أزال أفكر في الأمر وأخشى أن يكون قد أصابه مكروه.

قال ماتفي تروفيميتش وهو ينهض من مكانه:

- إمممم! كان يجب أن أكون هنا منذ فترة طويلة. الليل لم ينقضِ بعد. كم فرستًا قال تفصل بين المدينة والميناء الصغير؟

- قال عشرين أو اثنين وعشرين.

- الحق كان يجب أن نذهب معه، فاللّٰه أعلم كم من الوقت سيستغرقه الحصول على المال. ليس في أيدينا شيء الآن. فلننتظر قليلًا، فربما هو في الطريق الآن.

- أفكر طوال الوقت خوفًا أن يكون قد حل به مكروه، وأتساءل ما إذا كان قد هرب بالمال. يمكن أن تحل أي مصيبة بسهولة وسرعة. قلبي يشعر بالقلق. أسمعت ما حكاه الفلاحون في الليلة الماضية؟ قالوا إنه يحدث كثيرًا ألا تمضي الأمور على ما يرام هنا. واحد منهم من روستوف، بدين، قال إنهم سرقوا جوادًا من فلاح من النُّزُل ومضوا به إلى السوق الذي كنا فيه.

- حقًّا؟

- نعم يا ماتفي تروفيميتش. كنتَ نائمًا، لكني سمعتهم.

- رحمتك يا رب، أخ! أخ!

في هذا الوقت دخل بائع الخمر الكوخ، ووضع يديه البدينتين خلف عنقه، وتمطع وتثاءب قائلًا:

- ألم يصل رفيقكم بعد؟

أجاب الطويل:

- لا يا أخي، لم يصل بعد. لقد انتظرت طويلًا وتفحصت الطريق. نخشى أن يكون قد أصابه مكروه. لقد سافر ليلًا، ومعه نقود، وارتكاب الخطية ليس عملًا صعبًا.

- لا داعي للقلق. لا بد أن شيئًا قد أخره.

- يُقال إن الطرق عندكم ليست آمنة، وهذا ما يقلقنا.

- ماذا يمكنني أن أقول؟ كل شيء وارد الحدوث، لكننا منذ زمن لم نسمع عن شيء كهذا. يقولون فقط إن ثمة فلاحة تعرضت للسرقة على الطريق، وغير ذلك لم أسمع شيئًا. يبدو أن الأمور قد صارت هادئة.

- آخ! المشكلة فقط هي أن... ألا يمكنني أن أذهب إلى الميناء؟ هل هو بعيد عن هنا؟

- 17 فرستًا على الأقل. لا تذهب. انتظر، يا إله الرحمة! آه، آه.

يقول بائع الخمر هذا متثائبًا، ثم يصيح وهو يخرج إلى الرواق ويهز جانب الصبي بقدمه:

- إيه يا باخومكا! ماذا بك أيها الشيطان الأحول؟ استيقظ، حان الوقت لفتح الحانة. لقد حل النهار.

جلس ماتفي تروفيميتش مجددًا على المقعد، وغفا، وخرج رفيقه إلى الشرفة الخارجية، وبدأ ينظر مجددًا إلى الطريق.

سرعان ما دبت الحيوية في أنحاء الحانة. تعالى صرير الزجاج وازدحم المكان بالناس، ودبت الحركة في المكان كله. أوقدت الطاهية الموقد واجتمع الفلاحون أسفل المظلات، وبعد برهة قصيرة تعالت أصوات الهتافات والأغاني الجريئة. واصل الرجل ذو السترة الطويلة مراقبة الطريق بانتباه بليد. فجأة نهض من مكانه، وقطع الشرفة راكضًا، ومد عنقه كما لو أنه يحاول الاقتراب مما يراه قادمًا من بعيد. لكن وجهه الذي كان الفرح قد بدأ يرتسم عليه عبس فجأة، وقد اكتشف خداع توقعه، ومن ثَم تراجع مجددًا في حزن.

لاح على الطريق ثلاثة رجال سائرون. عندما ازدادوا اقترابًا من المكان لفتوا انتباه التاجر تلقائيًّا. كان اثنان منهم يرتديان خرقًا ملطخة بالأوحال، ووجوههم كانت ناحلة منهكة. أضفتْ عليهم الحواجب الخشنة الشعثاء هيئة قاسية وضارية. هيئة ثالثهما هي أكثر ما أدهش التاجر. كان فلاحًا طويلًا محدودبًا في الستين من عمره ضربه الشيب، وجهه شاحب كالطباشير، كما يبدو عليه المرض بدا الفلاح كما لو أن كآبته تعود إلى مرض قوي حدث أكثر من مرة أن تدلى رأسه على جانبه، وبدت ذراعا العجوز القصيرتان كما لو أنهما قد تدلتا بلا حياة مع كل خطوة على الساقين النحيلتين الخرقاوين، الملفوفة حولهما لفافات ساق ممزقة مغطاة بالأوحال. بدا عليه أنه لا يشعر إطلاقًا بالبرودة التي أضفت لونًا أرجوانيًّا على صدره وكتفيه اللتين لم يكن يغطيهما شيء تقريبًا سوى قميص فلاحي. باقترابهم من الحانة ألقى رفيقا العجوز نظرة في البداية على كل الاتجاهات، ثم أخذاه من يده ودخلوا الحانة بسرعة، من دون أن يلقوا حتى نظرة على الغريب الجالس في الداخل. ألقى التاجر عدة نظرات على الطريق مجددًا، ثم دخل الحانة مجددًا. ومض الشك في ذهنه تلقائيًّا.

كان الجزء الأكبر من الفلاحين الذين قضوا ليلتهم في النُّزُل لا يزالون موجودين في المكان. وقف بعضهم في منتصف الكوخ يتجادلون بحرارة عن أمر ما، بينما جلس آخرون على المقاعد المرصوصة حول الطاولة. في زاوية المكان، بجانب الأربعين برميلًا المبطنة ومختلفة الحجم. جلس على جانبي أنطون أخوه يرمولاي وبيتروشكا. تراصت أمامهم زجاجات ربع اللتر والكؤوس. أسند يرمولاي مرفقيه إلى الطاولة وباعد راحتي يده على شعره الأسود، ونظر بشرود من النافذة، لكن الجهود التي بذلها كي يبقي عينيه مفتوحتين، والحركة المتواصلة للعضلات على جبهته الضيقة، وميل رأسه البسيط بيَّنوا جميعًا أنه ينصت بانتباه شديد إلى كل ما يُقال حوله. جلس أنطون ورفيقه عابسين صامتين. بعد برهة اقترب بائع الخمر من التاجر وقال:

- إذن؟ يبدو أن الأخ لن يأتي.

أجابه التاجر، وقد ألقى نظرة جانبية إلى زاوية المكان حيث جلس بعض المتسكعين:

- لن يأتي فعلًا. يبدو أن ما فكرتُ فيه قد حدث فعلًا. لقد أصابه مكروه. لقد سافر ليلًا ومعه مال.

لم تفُت التاجر ملاحظة حركة يرمولاي ورفيقه الذي رفع رأسه فور أن جاءت سيرة المال دق قلبه بقوة إلى حد أنه لم يستطع أن ينطق بشيء لبضع ثوانٍ ما إن تمالك نفسه حتى واصل الحديث، إلا أنه حاول أن يتظاهر بالهدوء بقدر الإمكان.

- لقد حكيت لي يا أخي عن امرأة سرقوها هنا على الطريق. المكان هنا خطير، وكلما ازداد المرء طيبةً، سرقوا منه المزيد.

تجمدت الكلمات على شفتيه، وزادت شكوكه النظرة التي ألقاها يرمولاي على الباب وعلى رفيقيه، وشعر أن كل شيء يؤكد له أن ثمة أمرًا سيئًا هنا تظاهر بأنه نهض من دون رغبة من مكانه، لكنه صدم بائع الخمر بمرفقه وخرج كلاهما إلى الردهة، قال له سريعًا:

- اسمع يا أخي، يبدو أن بلية قد حلت أترى هؤلاء الثلاثة الجالسين في الركن بالقرب من البراميل؟

- أين؟ حسنًا رأيتهم، ماذا بهم؟

واصل التاجر بلهجة مقنعة:

- أرجوك بحق الرب لا تدعهم ينصرفون. سنعرف أولًا أي نوعية من الناس هم. لن يلحق بك أي مكروه. انظر كيف يبدون مريبين! وهذا العجوز الذي

معهم والذي لا يرتدي سوى قميص. أي متشردين هم! لا تدعهم ينصرفون. سوف أوقظ رفيقي. يبدو لي حقًّا أنهم...

لم يكمل التاجر جملته، واندفع بتهور إلى الكوخ. أما بائع الخمر، الصياد الشغوف بمختلف أنواع العراك والمشكلات، والذي لم تكن المرة الأولى التي يشاهد فيها نصابين في حانته، بانت عليه فورًا ملامح الجدية، وابتهج وسعل طويلًا، ودخل الحانة. كان يرمولاي ورفيقاه في هذا الوقت قد انتهوا من شرب ربع لتر فودكا، ويستعدون للرحيل. قال يرمولاي وهو يقترب بحيوية من بائع الخمر:

- يا صاحب المكان، كم حسابنا؟

سأله، ونظره مثبت على الطاولة وأنطون الجالس في سكون كما كان.

- ربع لتر؟

أجابه يرمولاي وهو يضع بيد قبعته على رأسه، وبالأخرى يقدم له روبلًا أحمر:

- نعم، ربع لتر. الوقت يداهمنا للأسف، ولولا ذلك لكنت قد طلبت المزيد.

واصل بائع الخمر بوريس الضارب إلى الحمرة حديثه، وقد بدا له غريبًا أن يحمل صعلوك كهذا مثل هذه العملة:

- لا داعي للعجلة. من أين أنت؟

أجاب يرمولاي من دون أي ارتباك:

- نحن من مكان بعيد يا أخي. نعمل حفارين، وها نحن في طريقنا إلى المنزل بعد أن قبضنا أجرنا.

في اللحظة ذاتها أعطى يرمولاي علامة لبيتر مشيرًا إلى أخيه. لكن بائع الخمر لاحظ الجهود التي يبذلها بيتر ليُنهض أنطون على قدميه، ومن ثَم سأل:

- ما أمر رفيقك؟ يبدو مريضًا.

أجاب بيتر وهو في طريقه إلى الباب ومعه أنطون:

- نعم، مرض في الطريق من تولا. شيء أصاب معدته.

قال يرمولاي بنفاد صبر:

- أعطني بقية الحساب بسرعة.

لكن التاجر سد الطريق أمامهم، وبصحبته بضعة فلاحين. من ضمن هؤلاء الفلاحين كان ذلك الرجل من روستوف الذي إلتقى به أنطون في السوق. ما

إن رآه الرجل حتى بسط ذراعيه وقال بسرور:

- مرحبًا يا أخي، كيف حالك؟ لم أتوقع لقاءك. هل وجدت جوادك؟

تنهد أنطون. سأله التاجر بتعجب:

- أتعرفه؟

أجاب الرجل من روستوف وهو يقترب من أنطون:

- وكيف لا أعرفه؟ يا إخوة هذا هو الفلاح الذي حكيت لكم عنه ليلة أمس؛ الفلاح الذي سرقوا جواده. ولكن يا أخي كيف تم قتل الرجل الذي من بلدتك؟

نهض بضعة فلاحين من أماكنهم واقتربوا من أنطون. أجاب بيتر بوجوم:

- لقد وجدنا جواده في اليوم التالي. أعدناه بصعوبة بالغة.

- حقًّا؟

قال يرمولاي وهو يدفع كتف الياروسلافي، شاقًّا طريقه صوب الباب:

- ماذا تريد؟

- لا تدفع بقوة يا أخي. لم يوجِّه أحد إليك حديثه.

قال بائع الخمر فجأة وقد أمسك بالمتسكع:

- توقف، كيف قلت لي إذن إنك في طريق العودة بعد أن قبضت مالك، وفي الوقت ذاته رآه (وهنا أشار بوريس إلى الرجل من روستوف ثم إلى أنطون) في السوق ومعه الجواد؟ لقد قال إنه فلاح يعمل بالسخرة. أتذكر أيضًا أنه قال إنه من أقرب قرية.

قال الرجل من روستوف:

- قال إنه من تروسكينو.

صاح بوريس وقد اقترب من يرمولاي:

- لماذا تخلط كل شيء؟ أي حفار تتحدث عنه؟

صاح يرمولاي، مندفعًا بقوة نحو الباب:

- وما شأنك بي؟

- لا انتظر، قف، يا رفاق، لا تتركونه، قُل لي أولًا أي نوع من الناس أنت!

قال التاجر فجأة، وقد انتزع من يدي يرمولاي القفازين المصنوعين من جلد مدبوغ أخضر، ولم يفكر الأخير في محاولة إخفائهما:

- لصوص، لصوص، أوثقوهم يا إخوة، إنها قفازات أخي. لقد سرقوها منه.

تعالت الأصوات من كل أنحاء الكوخ: «إيه! أمسكوهم، اربطوهم، أمسكوهم»، وأحاط الفلاحون بالمتسكع. صاح يرمولاي، وقد صار في موقف دفاعي:

- ماذا بكم أيها الشياطين؟! ماذا تريدون مني؟ ماذا تريدون؟

قال التاجر وقد أمسك به من صدره:

- من أين جئت بهذه القفازات يا لص؟

- وجدتها في الطريق.

قال بائع الخمر جارًّا يرمولاي في هذه اللحظة من صدره:

- أنت كذاب يا ابن الكلب.

- ماذا تفعل؟

ولم تنقضِ دقيقة حتى كانوا قد ألقوا بيرمولاي في الردهة، وأوثقوا يديه وقدميه. جروا بيتروشكا أيضًا خارج الحانة، وعندما مر بصديقه في الردهة قال بصوت مرتعش ومتقطع:

- أطلقوني أيها الإخوة. لماذا تجروني؟ هو المسؤول ومعه أخوه، هذا الفلاح الأشيب، هما من سلبا التاجر. أطلقوني.

صاح التاجر، وهو يركض إليه في الردهة:

- كيف؟ هل قتلوه؟ أتقول سرقوه؟

صاح ماتفي تروفيميتش في بوريس الضارب إلى الحمرة، وهو لا يزال يثير ضجيجًا بالقرب من يرمولاي:

- يا بائع الخمر، يا صاحب المكان، أرسلهما سريعًا إلى إقطاعيتهما. لن تخسر شيئًا. أسرع يا سيد وأرسلهما على ظهور الخيل إلى قريتهما، إلى عمدة القرية، إلى الناظر. بسرعة يا أخي.

بينما كانوا يوثقون بيتر بالحبال سمعوا ضجة مريعة عند باب الحانة، وفي الوقت ذاته ظهر بعض الفلاحين عند العتبة وقد أمسكوا بأنطون؛ أمسك كل منهم بما استطاع الإمساك به من العجوز، وجروه على الأرض بحنق شديد إلى حد أنهم لم يلحظوا كيف ارتطم رأس هذا البائس بالأرض. كانت عينا

أنطون مغلقتين، ولم يشهد شيء على أنه لا يزال حيًّا سوى ارتعاشة الجفن والجبهة. سالت الدماء من أسنانه المطبقة وشفتيه الشاحبتين. كان الياروسلافي السمين أكثرهم سعارًا، حيث لم يتوقف عن توجيه الضربات. صاح بصوته الأجش:

- أوثقوه، هذا السارق، أوثقوه. انظروا، إنه مخادع وغشاش. مخادع، كلب. وأنا الساذج كنت لا أزال أبكي عليه! عسى أن يفترسني ذئب. جُروه. نصاب. اربطوه، اربطوه.

قال بائع الخمر وهو يهرع للبواب:

- إيه يا ستيبكا! خذ الجواد سريعًا واذهب إلى قرية تروسكينو. اذهب إلى الناظر مباشرة واجمع الناس وائت به إلى هنا. قُل له إننا قبضنا على لصوص من قريته.

اندفع الرجل مسرعًا تحت المظلات، وبعد برهة قصيرة كان ستيبكا قد انطلق بالجواد بأقصى ما يستطيع من سرعة. في أثناء ذلك وقف بوريس الضارب إلى الحمرة وماتفي تروفيميتش، وبضعة أشخاص آخرون من الفلاحين في الشرفة الخارجية، وهم يصيحون في إثره:

- هيا، لا تتأخر، أسرع، ائت بالناظر، استدعِ الناس، انطلق، لا تتوقف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

-10-

خاتمة

بمرور أسبوع على هذا الحادث الذي جرى في الحانة، تدافع سكان قرية تروسكينو كلهم تقريبًا إلى الشارع. أراد الجميع؛ صغارًا وكبارًا، أن يحضروا مشهد رحيل اللصوص. أحاط هذا الحشد المبرقش من الفلاحين والفلاحات والفتية والفتيات، وحتى الأطفال الرضع الذين خشيت أمهاتهم أن يتركنَهم وحدهم في المهود، بعربتين يجرهما جوادان هزيلان، وأثاروا ضجيجًا. لم يكن هناك أحد بعد في العربتين. اتكأ على واحدة من العربتين صديقان عجوزان أشيبا الشعر، وقد ارتديا معطفين قصيرين حمراوين من جلد الغنم، وائتزرا بحزامين محكمين، وحيكت على الجانب الأيمن من صدر كل منهما أزرة نحاسية مثمنة الزوايا، ولاح من منظر لحيتيهما الحليقتين أنهما لم يكونا سوى حارسين معينين من الجند. تحدث كلاهما بود مع الشاب صاحب إحدى العربتين، والذي تعين عليه أن ينقل المدانين إلى السجن القريب. بمعزل عن هذا التجمع كان هناك أحد العاملين بفرقة الجيش، متكئًا على سلاحه، وقد أدار ظهره إلى صاحب العربة الأخرى الذي لم يتخطَّ السادسة عشرة من العمر، وكان الأخير يملس شاربه الصغير، ويغمز بمكر للفلاحات من حوله. في الناحية الأخرى جلس فافيلا الحداد ومساعده متكئين على محور العربة. جلس المساعد على حقيبة جلدية برزت منها حلقات حديدية ومطارق. كان يخمش مؤخرة رأسه بشدة، وقد طرح رأسه إلى الخلف، محدقًا بثبات - لسبب ما - في السماء المغطاة بغيوم بيضاء كثيفة لم يرَ احتشادًا للناس أكبر من هذا من قبل كان كل واحد يحاول أن يدفع رأسه حتى يجد فجوة ينظر منها إلى البكرات المصنوعة من خشب البتولا الموجودة عند قدمَي فافيلا كان هناك رجل طويل القامة أصلع، واقفًا أمام الجميع، ولم يستطع تمالك نفسه من لمسها بقدمه. قال أخيرًا، ساحبًا قدمه بسرعة:

- بكرتان فقط؟

قال فافيلا بصرامة:

- أتريد شيئًا؟ ألم ترَ مثلهما من قبل؟

أجاب بأسف:

- في الحقيقة لا. أنا مشغول بشدة.

سألت فلاحة بدورها، حمراء الوجنتين كالخشخاش، حادة الصوت كطائر، وقد مدت عنقها النحيل الطويل:

- أستكون ثقيلة أيها العم فافيلا؟

أجاب الحداد:

- ثقيلة جدًّا. جربي بنفسك لو أردتِ.

قال عجوز طويل أصلع، وهو يدفع الفلاحة صاحبة الصوت الحاد، مثبتًا عينيه المستديرتين مجددًا على البكرتين اللتين صارتا هدفًا لإثارة الفضول العام:

- ألم ترَ شيئًا بعد كل هذا الدفع؟ حسنًا، سأدفع مجددًا.

قالت فتاة متوردة الوجنتين، ذات أنف أفطس، ربطت رأسها بوشاح أصفر، وقد برز رأسها من خلف عجوز ذابلة محدودبة الظهر:

- أين قطعتهما أيها العم فافيلا؟ في غابة حور الرجراج؟

- وما شأنك بذلك؟

قال أحدهم على مبعدة:

- آخ يا أنطون! جعلوه في شيخوخته يرتدي حذاء طويل العنق، وله مثل هذه البطانة ([31]).

- يستحق المحتال، وهل أجبره أحد على أن يجلب لروحه هذه الخطية في مثل هذا العمر؟ أهو أمر هين أن تسرق؟

- نعم أيها الإخوة، لا تفكروا فيه ولا تشغلوا بالكم بمصيره إنها أعجوبة فعلًا، لقد وقعنا في شرك لصوص، سرقوا واحدًا فالآخر مؤخرًا سرقوا من ستيجني الكسوة كلها جميعهم لو تعلمون تصرفوا بغرابة. يبدو أن أنطون كان يساعدهم في مثل هذه الأمور، فبالإضافة إلى أن أحدًا لا يزوره، لديه أيضًا...

- يستحق ما حدث له هذا المخادع. يستحق، لماذا تشفقون على سارق يا إخوة؟

- أيتها العمة فيدوسيا، هل كنتِ في الشارع عندما أمسكوا بتلك المتسولة التي كانت تستعطي في قريتنا؟

- لا يا عزيزتي، لم يتسنَّ لي أن أرى ذلك. يُقال إنها والدة هذا الفقير، أليس كذلك؟

- إنها أمه فعلًا. يقول تريفون بوريسوف إنها شريرة، شريرة بدرجة لا يعلمها أحد. ويقول إنها عضت يده عضة لا يمكن لأحد أن يتصور كيف يمكن حياكة الجرح الناتج عنها.

- أحقًّا ذلك؟

- فلْأمُت في مكاني لو لم يكن هذا ما حدث! العمة فيدوسيا هنا، ولم يخطر ببالي حينما قلت ما قلته أنها ستكون هنا لقد كانت مذعنة، مذعنة، ويمكن للمرء أن يقدم لها كسرة خبز لتأكل، وفجأة...

باختصار، شارك كل من في الحشد في إطلاق الشائعات والانهماك في القيل والقال. لكن فجأة تعالى ضجيج الحشد أكثر، وانطلقت الصيحات من كل الاتجاهات: «ها هم، ها هم».

ظهر حينها من طرف الشارع المقابل يرمولاي وبيتر وأرخاروفنا وأنطون، وأمامهم سار نيكيتا فيدوريتش وقد لاح القلق عليه، لكن بدت عليه الأهمية، وكان برفقة الحراس والضباط. على جانبي المدانين سار بضعة جنود يرتدون الزي الرسمي كاملًا، يحملون أسلحتهم، وحقيبة جراياتهم، واحتشد الناس خلفهم. تخلف أنطون قليلًا عن رفاقه، وكان يسير ببطء متعثرًا، وسقط كثيرًا على ركبتيه، ولاحت بينه وبين الحشد فارفارا زوجته، ومعها فانيوشكا وشقيقته يطوفون القرية كلها. على مبعدة من الجميع ركضت مجموعة من الفتية والفتيات بصخب، وقد تناثروا وتدافعوا وسط الحشد. أما الفتاة العرجاء الضاربة إلى الحمرة، فكانت تقفز على ساق واحدة، وبدت مشوهة كالعفريت، وسبقت الجميع. صاح نيكيتا فيدوريتش بغضب، دافعًا الفلاحين والفلاحات المتجمهرين حول العربتين:

- ابتعدوا، تفرقوا، ماذا بكم؟! أقول لكم ابتعدوا، هيا كوِّموا البكر على العربات أيها الأوغاد. أما أنتم أيها الإخوة (واصل حديثه ملتفتًا بمودة إلى كبار الشيوخ والحرس والجنود)، فلا تستسلموا للنعاس، وكونوا متأهبين لسماع الأوامر.

تنحى نيكيتا فيدوريتش بضع خطوات إلى الجانب. نهض فافيلا ببطء لينفذ الأوامر. خيَّم الصمت التام على الحشد، حتى إنه كان بالإمكان أن يسمع من في النهاية المقابلة للشارع ضربات المطرقة التي كان ينهال بها الحداد على البكر بوضوح.

صاح يرمولاي متململًا على ساقيه:

- آه يا أخي فافيلا، أنلتقي في النهاية هنا؟ أتتذكر يا رفيقي كيف كنا نشرب معًا؟ كم كنت فاجرًا يا أخي!

قال له نيكيتا فيدوريتش:

- اصمت أيها المحتال، اصمت، انتظر قليلًا وسترى ماذا سيُفعل بك.

اعتلى يرمولاي العربة بمساعدة الحرس، وجلس بالقرب من أرخاروفنا وبيتر. عندما حل دور أنطون، وبعد أن أجلسه فافيلا على العربة وضرب البكرة ضربته الأولى، صدرت وسط الحشد الصامت فجأة صرخة مدوية، حتى إن رعشة اكتنفت الجميع تلقائيًّا، وفي اللحظة ذاتها تقريبًا ألقت فارفارا نفسها عند قدمَي أنطون، ودفع الفلاحون فانيا وأكسيوشكا خلفها. تمزق منديل رأس فارفارا وصار مجموعة من الخرق، وتناثرت خصلات شعرها الملطخة بالوحل على وجهها المذهول وكتفيها اللتين غطاهما بالكاد قميص ممزق تشبثت بقدمَي زوجها وقد فقدت وعيها تقريبًا، وقد حاولت أن تحرره من بكر الأصفاد.

- أنت أبونا، آه يا أبانا، أنقذوه يا أعزائي، أنقذوني، لا تدعوه يعاني وحيدًا من تلك المرارة الرهيبة، لمن تتركنا يا أبانا في هذا البؤس؟

كان من المستحيل فهم كلمة أخرى مما تفوهت به، فقد خنق استغراقها في البكاء حديثها غير المترابط. وقف فانيا وشقيقته ساكنين بالقرب من عمهما والدموع تنهمر من أعينهما. صاح يرمولاي مجددًا:

- إيه أيها الإخوة! بحق الصداقة القديمة لا تسيئوا إلى طفليَّ. إنهما غير مذنبين. إيه أيتها الفتيات صاحبات التنورات الزرقاء والقمصان البيضاء (أضاف غامزًا بعينه للفتيات الواقفات وسط الحشد) كُنَّ لطفليَّ بمثابة الأب!

أما أنطون الذي كان جالسًا في هذه اللحظة في حالة خدر تام، رفع رأسه ببطء، وانهالت دموعه كالمطر أراد أن يقول شيئًا ما، لكنه لم يفعل شيئًا سوى أن لوَّح بذراعه ومسح عينيه بكفه قال نيكيتا فيدوريتش للحراس مشيرًا إلى أنطون:

- أجلسوه. وأنت لماذا تقف هناك؟ اجلس وتناول زمامك وكف عن التثاؤب. أيها الحراس، أبعدوها الآن، فقد نالت فرصتها بالفعل لتودع زوجها اللص. أبعدوها، هيا.

صاحت فارفارا، مادة يديها بصورة محمومة إلى زوجها:

- يا أبانا، آه، يا أبانا، أنطونوشكا، آه، آه.

وانهارت الفلاحة وسقطت. عاود يرمولاي الحديث في أثناء صعوده عارضة العربة:

- إيه يا خالة فارفارا! كفاكِ، لن يحن عليكِ (أشار إلى نيكيتا فيدوريتش). إنه مجرد كرش.

صاح نيكيتا فيدوريتش بغضب، مشيحًا بذراعيه في وجه الفلاحين الجالسين على العربة:

- انصرفوا.

ضربا الخيول بالسياط، وصفَّرا وتحركت العربتان.

تبعهما الجمع، وفي مقدمتهم، وبالقرب من العربتين، كانت أنيوتكا العرجاء ذات الشعر الأحمر تقفز وتتلوى على قدم واحدة. صاح يرمولاي وقد أمسك بقبعته ملوحًا بها في الهواء:

- الوداع يا رفاق، الوداع، لا تتذكروني بالسوء، الوداع يا إخوة، وداعًا ولا تنسونا.

اقتربت العربتان من ضواحي القرية. في هذا الوقت بدا كما لو أن السحب البيضاء الكثيفة المعلقة في السماء في سكون، استيقظت فجأة من سباتها، وأسقطت ضختها الأولى من الثلج الذي ظل يدور ويلف على الأرض. في لحظة واحدة اكتسى شارع تروسكينو باللون الأبيض، وكذلك أسطح الأكواخ والبئر القديمة، وأخيرًا الحقول الممتدة بعيدًا حول الإقطاعية كلها. ازدادت قوة الريح الباردة، وخفقت شبكة من الثلج كبطانية ثقيلة لا متناهية الكبر. شد نيكيتا فيدوريتش جسده الكامن تحت ردائه، وأعطى ظهره لضواحي القرية واستدار. لكن الناظر لم يرَ شيئًا، ولا حتى أكواخ القرية البعيدة التي لم تعد مرئية تقريبًا عبر رقائق الثلج الناعم الذي انهمر في كل مكان.

قال في نفسه وهو يزيل الغبار ويواصل طريقه:

- أوغاد، لقد قلت على كل حال إن الأسرة كلها هكذا. ليس عبثًا إذن أني لم أشفق على هؤلاء اللصوص. ولكن حمدًا للّه، تخلصت منهم. لقد أعددنا القضية، وتمت المحاكمة في غضون أسبوع كامل، وقد شغلتنا حقًّا. ولكن حسنًا، على الأقل لن يعود هناك الآن أثر لهم.

استغرق نيكيتا فيدوريتش في هذه الأفكار حتى إنه لم يلحظ أنه اقترب من مكتبه. انتزعه صوت آنا أندرييفنا فجأة من استغراقه في التفكير:

- نيكيتا فيدوريتش، يا نيكيتا فيدوريتش، تعالَ اشرب الشاي.

هكذا صاحت وقد أطلت من النافذة بوجهها الأصفر ووشاح رأسها الأبيض.

- تعالَ اشرب الشاي، وكفاك تسكعًا.

- قادم، قادم يا امرأة.

-

أجابها زوجها بوقار، ودخل الشرفة الخارجية للجناح القديم، ولم يلحظ فاطيمكا التي كانت واقفة خلف الباب، تغطي وجهها بيديها الصغيرتين، منخرطة في البكاء لسبب ما.

1847

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

<u>Link – لينك القنـــــاة</u>

الفهرس..

مقدمة المترجم
-1-
العم وابن أخيه
-2-
المعدمة
-3-
الطريق
-4-
السوق
-5-
النُّزُل
-6-
الجواد الأرقط
-7-
حكايات
-8-
نيكيتا فيدوريتش
-9-
العودة
-10-
خاتمة

Notes

[←1]

مقياس قديم لقياس العمق.

[2←] يُدلل إيفان بفانيا أو فانيوخا.

[3←] معتقدات شعبية دينية تجعل الفرد يرشم علامة الصليب عندما يتثاءب.

[←4]

هذه أقرب تسمية للعبة روسية، وهي تسمية منتشرة في بعض البلدان العربية. هي لعبة يلعبها الأطفال بعظام الدجاج أو مفاصل الخروف بعد أن تُنشر في الشمس لتجف.

[←5] يبدو أنها حركة للتعبير عن الإهانة كإخراج اللسان.

[6←]

كائن مرعب في الفلكلور السلافي. تُحلِّق بابا ياجا على هاون عملاق، وتخطف الأطفال الصغار، وتعيش في كوخ يقف على أرجل دجاج.

[←7]

تدليل أنطون - المترجم

[←8] مشروب سلافي تقليدي مخمر بنسبة قليلة يُصنع عادة من خبز الجاودار.

[9←]

ضريبة روسية قديمة كانت تُفرض على كل فرد بالغ.

[←10] طبق بدائي من خبز وملح مطحون في كفاس أو ماء.

[11←]

نسبة إلى أفراد قبيلة القلموق، وهم أحد الشعوب الروسية.

[←12] ثوب رجالي قديم يشبه القفطان.

[←13]

وعاء كبير يستخدم لغلي وإعداد الشاي.

[←14]

تدليل بانتليي (ابن الجار).

[15←]

جرت العادة أن ينام الفلاحون فوق الموقد الريفي ليشعروا بالدفء.

[←16] مقياس روسي قديم للطول يُقدَّر بـ1066 مترًا.

[←17] لجان محلية لإدارة شؤون القرى.

[←18]

مشروب كحولي روسي قديم.

[←19]

كانت الخمور تباع في الصيدليات.

[←20] ألعاب روسية شعبية.

[21←]

الحوار هنا يدور بلغة خاصة بالغجر، وقد ألحق الكاتب بالنص ترجمتها بالروسية.

[←22]

استخدم الكاتب كلمة «ليخو» وهي تجسيد للمصير الشرير وسوء الحظ في الأسطورة السلافية، مخلوق بعين واحدة، غالبًا ما يُصوَّر على أنه امرأة عجوز نحيفة سوداء، أو كعفريت ذكري شرير من الغابات.

[←23] يعتبر الخبز والملح من مراسم الترحيب في بعض الثقافات السلافية والشمالية. العبارة إذن تشير إلى الترحيب.

[←24] نوع من الأسِرة كانت موجودة قديمًا في الأكواخ تحت السقف، بين الموقد والجدار المقابل لها.

[←25]

مقدار روسي قديم للخمر يُقدر بنحو ثمن أو عشر دلو.

[←26] في هذه الفترة كان الفلاحون يُجنَّدون لفترات طويلة، ومن ثَم انتشرت ظاهرة النساء اللاتي يعشن بمفردهن بعد أن ذهب رجالهن إلى الجندية، وقد لا يعرفن حتى ما إذا كان الزوج حيًّا أم لا.

[←27] كان الفقراء يرتدون عادةً في روسيا أحذية مصنوعة من الألياف، بعكس الحذاء طويل العنق الذي يعتبر باهظًا بالنسبة لهم.

[←28]

نظرًا لعدم وجود أرض كافية لدى الفلاح، لم يكن يجد مكانًا يرعى فيه ماشيته، ومن ثَم كانوا يحاولون أن يتركوها ترعى في أراضي السادة، وكان السادة يهددونهم بالاستيلاء على أي ماشية تدخل أرضهم.

[←29]

في الأصل الروسي ينطق الطفل الكلمات بصورة مشوهة.

[←30]

يعني الاسم من يحزن ويولول كثيرًا.

[←31]

يبدو أنه حذاء خاص بالمدانين.